هبة الراغبين

في شرح تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين

للعبد الفقير إلى مولاه الغني

سعيد النور بن منتقى بن أحمد بن منتقى بن المجاهد الاكبر

الحاج عمر الفوتي رضي الله عنه



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله الذي أرسل رسوله بشيرا ونذيرا للعالمين وأجب عليه أن يُذَكِر الثقلين، فقال: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[1]،

والصلاة والسلام على من بعث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي يذعن له كل مخلوق في المحشر.

وبعد فأعلم يا أخي رحمك الله إني تصفحت آية من كتاب الله وامعنت فيها النظر فوجدتها ناهية عن جميع المعاصي القلبية والجوارحية وآمرة بجميع الطاعات الظاهرة والباطنة، وهي قوله جل وعلا:

﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء آجالها والله خبير بما تعملون ﴾[2].

فاشتاقت نفسي أن انظمها نظما مستقلا، ويكون كل حرف منها ولو كان غير ثابت في الرسم كالألف المحذوفة بيتا كاملا، ويكون ذلك الحرف أول البيت وأشير إلى كل حرف من حروفها الهجائية بجعلها محمرة في أول الأبيات

[1] - سورة الذاريات – الآية 55-58-

[2] -سورة المنافقون – الآية 8-11

وبتمام الآية الشريفة تمت القصيدة إن شاء الله، وقد كنت نظمتها في السفر ونحن قاصدون بيت الله الحرام فلما وصلنا مكة المشرفة وقضينا مناسكنا وتم حجنا بحمد الله، قصدنا المدينة المنورة لزيارة أفضل البرية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فلما وصلنا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرناه كما ينبغي وتم مطلبنا والحمد لله على ذلك، اشتاقت نفسي إلى نظمها مرة ثانية في مدينة رسول الله تبركا به صلى الله عليه وسلم وبتلك البقاع والأماكن الشريفة بتغيير كثير مما كان في المنظومة الأولى، إذ منتهى تلك قوله جل وعز "وأكن من الصالحين".

ثم اعلم أني ما قصدت بهذه القصيدة إظهار منصبي في علم العروض والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع وغير ذلك، بل قصدي بها نفع المؤمنين الذي لهم اعتناء بإصلاح نفوسهم لا غير ومع ذلك إنها قصيدة نافعة إن شاء الله لمن عول عليها وعمل بما في ضمنها، وسميتها تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين.

وتم نظمها وتسويدها وتبيضها في مسجده صلى الله عليه وسلم

في الروضة المشرفة بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ووجهي إلى وجهه صلى الله عليه وسلم يوم الخميس وقت الضحى بعد أربع مضين من شهر الله شوال سنة أربع وأربعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

1- يقول الفوتي وذاك الأفقر الكدوي ابن سعيد عمر

2- الحمد لله الذي توحدا في ملكه كفر من قد جحدا

3- إلهنا صل دواما سلم على الرسول المصطفى المكرم

4- يا أيها الإخوان لا تشتغلوا بالمال والبنين خيرا اعملوا

5- هم وغم دائم للمشتغل بالمال والأولاد دون الله جل

6- إذ هذه الدنيا غرور باطل واعمل لدار دائم يا غافل

7- إذ كل شيء كان لكن زائل فهو غرور اعتبر يا عاقل

8- لا تطلبوا فيها سوى ما ينفع في الحال والمآل لا ما يردع

9- ذروا عباد الله ما يشغلكم عن ذكر ربي واعملوا لربكم

10- يا أيها المغرور بالآمال ويحك تب واقصد إلى الأعمال

11- نكال رب الخلق والنيران لم ينج منها المال والولدان

أجل ولا جاه ولا قرابة ولا شجاعة ولا حرابة

إذا رأيت الناس في القيامة يحاسبون هم ذوو الندامة

مزوج كل امرئ بمثله ندمت ما فعلت من عصيانه

ندامة عظيمة لا تنفع تب قبل أن تطلب ما لا يسمع

ولا يغرك الذي علمته من رحمة الرحمان او سمعته

إذ ربنا لو كان ذا غفران فهو ذو النقمة والنيران

لا تقبلوا قول عدو الله بالزور والباطل أهل الله

إن إله الخلق قد أخبرنا عداوة اللعين حين غرنا

ترى عدو الله ماكر بنا مكر عدو حاذق وما ونى

لقوله اعمل فإن ربك يغفر يرحم وغير ذلك

هو الذي أخرج آدم النبي من جنة الإله أمره أبي

كِلوا أموركم إلى بارئكم لأنه خالقكم منشؤكم

متى اشتغلتمُ بذكر ربكم يعنكم الله على عدوكم

إلهنا ضمن أن ينصر من ينصر دينه بلا خلف زكن

مَنِ اشتغلْ بالذكر والعباده يعن بلا شك لحرق العاده

وللذي يذكر خمسة عشرْ فضيلة وكلها الله ذكرْ

أعني به المستغرقين في الذِكَرْ بشرطه المعلوم دون ما ذَكَرْ

لأنها مقرونة بالتقوى والذكر قوت المتقي والمأوى

كذا لأن الذكر جنس العمل خذها بترتيب بديع وجل

معرفة هدى وعون وفلاح محبة تقبل لذي الصلاح

ولاية بشرى نجاة النار دخول جنة مع الأبرار

له من الهموم مخرج حسن والرزق والتيسير حيث لا يظن

إدامة الغفران ثم بعده إعظام أجر لينال قصده

اشتغلوا بالله يا إخواني عن كل غيره بلا نقصاني

واشتغلوا بالعلم ثم العمل لا نفع في علم بغير عمل

لأن خير الناس عالم عمل بعلمه وغير هذا عنه مل

إن الذي علم دون العمل شر العباد إعمل ولا تعتزل

دم مستقيما يا أخي لتسلما إياك والعصيان كي لا تندما

كن عالما أو متعلما أوي مستمعا أو كن محبا لذوي

معرفة ولا تكن خامسهم تربح أخانا وتكن رفيقهم

عالم سركم وجهركم أمر أن تفعلوا الخير لتدركوا الوطر

نسأله بالفضل أن يرزقنا دوام فعله كما أمرنا

ذِكر الإله منتهى الولاية لأنه المبدأ والنهاية

كونوا إلى الرحمن مقبلينا عن كل ما سواه راغبينا

رءوف رحمان رحيم غافر قوّ قلوبنا فأنت الناصر

أنت الذي تعز من تشاء أنت الذي تذل من تشاء

لو كنت تعلم الذي في النار من حية وعقرب وغار

لكنت هاربا من الذنوب لفعل طاعة بلا عيوب

هداية الرحمان والرضوان أفضل ما يطلبه الإنسان

واجتهدوا لا تلهكم أموالكم عن العبادة وذكر ربكم

مِن الإله نعمة الأولاد لا يلهكم أولادكم عن هادي

نواله اقتضت دوام ذكره لأنه الوهاب دون غيره

يدوم ذو العقل من العباد على العبادة بلا عناد

فكل من شغل بالأولاد وكثرة المال على التمادي

عن ذكر ربه فذو خسران لأنه خالف ذا النيران

لا خير في مال ولا ولدان إن كان مشغلا عن الديان

ذووا العقول ما أرادوا غير ما يعينهم خلاف من تقدما

إن الذي أمرنا بالذكر أمر بالإكثار دون الجهر

لقوله جل وعز اذكروا والذاكرين والذين يذكروا

كذلك الرسول قد رغبنا إليه فاذكر يا خليلي ربنا

فالعز والإكرام والرضوان والربح في الطاعة يا نومان

إن الخسارة مع النقصان والفقر والهوان في العصيان

وربّنا ما حصل اليقين لذي التكاثر كما يبين

لا يجمع الحلال والحرام إلا غبي حوزها قد راما

إن الذي نهى عن التكاثر له عذاب دائم للخاسر

أما حساب صاحب الحلال فخطر يعظم للرجال -67

كان الذي يكون لا تعلم هل كنت سعيدا أو شقيا في الأزل -68

هذا الذي يخوف الرجال لو بلغوا الغاية والكمال -69

ما تعلم الجواب في القبر هلِ يكون ثابتا بلا خوف جلي -70

قد نشرت صحائف الأعمال هل باليمين الأخذ والشمال -71

لم تدر فعل الله في الحساب هل بالمناقشة والعتاب -72

خذلان من فلس مروي وهل رددت ما عليك من قبل الخجل -73

إن وزن الأعمال لا تدر هلِ يثقل فعل الخير أم لا فأعقلِ -74

سعيك في الصراط لا تدري هلِ يكون ذا سرعة أو بطء يلِ -75

رؤية ربنا هو المنان لم تدر هل يكثرها الرحمان -76

وأين أمنكم من الخسران قبل دخول جنة المنان -77

نسأله التوفيق والهداية والستر في الدارين والولاية -78

وأنفقوا أموالكم لله قبل ندامة عدو الله -79

إن غنيا ممسكا قاسي العنا يحوز غير ماله بعد الفنا -80

ندامة الممسك لا يسدها شيء نعم إذ فاته محلها -81

فليس للإنسان شيء غيرما قدمه من ماله كن فهما -82

قال رسول الله أو ما أكلا أو الذي لبسه فأبَلا -83

وكل ما قدمتم من مالكم فهو الذي ينفع عند ربكم -84

إذ كل ما أخره الإنسان فذاك للوراث يا نومان -85

من ترك الأموال للولدان ومات لا زاد فذو خسران -86

متى يكون عاقلا من أغنى غيرا وأردى نفسه وأقنى -87

أدوا حقوق الله من أموالكم من قبل أن يأتيكم حمامكم -88

رزقنا الديان هذا المالا وقال انفقوا اسمعوا ما قالا

زينة هذا المال لا تزيد إلا سواد القلب يا مريد

قلة مال المرء لا تمنع أن ينفق قدر وسعه يا من فطن

تذكر قول الله مادحا لهم في سورة الحشر بما ألهمهم

إذ قال ربنا ويؤثرونا اقرأ على تمام مفلحونا

كفاك قول الله لن تنالوا ردعا وإن تبخل فبيس المال

ما لبخيل نعمة الرحمان سوى عذاب الله والنيران

من كان موقنا بأن الله يرزق لا يبخل خافوا الله

نهى العليم خالق النيران عن التكاثر لذي طغيان

قال إلهنا وما لكم إلى تمامه كن عالما وعاملا

بادر إلى الخيرات قبل الفوت لكي يطيب العيش بعد الموت

لا تطع النفس ولا الشيطانا تفلح وتُرضِ ربّنا الرحمانا

ارفض أخي دنياك للنقصان خالف هواك تنج من خسران

نجاة إنسان بلا انفصام في قتل نفسه على الدوام

يا أيها النوام قد أمرتكم بتوبة نصيحة لربكم

انتبهوا قبل حلول الأجل لكي تنالوا الأمن يوم الوجل

تداركوا ما فات من تقصيركم قبل الممات ولقاء ربكم

يحاسب المرء على النقير يا صاح فأعلم وعلى القطمير

إياك والشح وطول الأمل من كان زاهدا فذو تأمل

حان الممات وعلى م تغفل عن العبادة وما ذا الكسل

دوام ذكر الله خير ما اشتغل به عباد الله قولوا لي أجل

كم ذاكرا صار به وليا كم غافل لاه بقى غبيا

من ترك الدنيا لأجل الله ينال ما يشاء عند الله

ألا اتركوا يا قوم سما قاتلا يغر من ليس لبيبا عاقلا

لا تطلبوا أن تكرموا بالنسب لأنه بالدين لا بالحسب

من طهر القلب من العيوب يعيش صالحا بلا ذنوب

وحاسبوا أنفسكم من قبل أن تحاسبوا يوم العقاب والفتن

تراكم الذنوب في القلوب يمنع أن يتوب ذو الذنوب

فكن رحيما بعباد الله تكن عظيم الشأن عند الله

يحرم احتقار أهل الأرب للنهي عن ذاك وسوء الأدب

قوا يا عباد الله أنفسكم نارا وأهليكم ومملوككم

وأمر الله كذا الرسول تعليمهم فاسمع كما أقول

لا تتركوهمُ بلا علم ولا عبادة المنان جل وعلا

رم التواضع ذر التصنعا وطلب الشهرة يا مستمعا

برّ لوالديك في كل هدى واعصهما إن أمراك الاعتدا

لا تهمل النظر في الحرام أمسك لسانك عن الكلام

واجتنب الرياء والتكبرا والحسد الحقد تكن مكبرا

لا تُدِمِ الشبع في الحلال إياك والحرام ذا النكال

إساءة الظن بعبد الله تبطل ما تعمله يا لاهي

اجتنبوا الغِيبة يا إخوان كذا النميمة مع البهتان

خير عباد الله عند الله أشفقهم على ضعيف واه

رم اصطحاب كل شخص مهتدي إن القرين بالقرين مقتدي

تمر الأيَّام كذا الشهور وأنت في الغفلة يا مغرور

نهاكم الله عن التدبير والاختيار فهو ذو التقدير

يا فوز قائم بأمر الله ونهيه مستسلم لله

أكرم بعبد مخلص أواب من غير إعراض عن التواب

ليس له تعلق بالغير لا طمع في السر أو في الجهر

إذا رأى معصية يجتنب موضعها جدا ولا يقترب

أكرم به يوم لقاء الله أكرم بعبد عابد أواه

جزاؤه الجنة والريحان والحور والقصور والرضوان

ليس له همّ ولا أحزان فيها ولا غمّ ولا نقصان

قد نال كل الخير في الجنان من دون ما شك ولا بهتان

رؤية رب الخلق في دار البقا أدركها أنعم بعبد ارتقى

يا فوز عبد نال كل ما اشتهى دون تخلف ونال المنتهى

بل نال كل القصد والمراد ما ناله جمع من العباد

فاز بما لم تسمع الآذان ولم تر العيون والجنان

أف لعبد الثوب والدينار والدار والدرهم والأغيار

صار أسيرا لحطام الدنيا والنفس والشيطان بيس البغيا

ديدنه تمتع البهائم أكلا وشربا زد نكاح الهائم

قرينه المحبوب في الأنام أخو الثراء لوْ مع الآثام

وظن أن العز عند الله تحصيل أموال بلا تناه

ألجأه الجهل إلى احتقار سادت أهل الله والكبار

كي لا ينال فضلهم للشَّقْوَه إذ قصده دنياه دون صفوه

نفره الخذلان عن إكرام أهل الهداية بلا انفصام

ما خاب من أحب أهل الله ومعها خدمهم لله

نسأله بالفضل أن يرزقنا محبة القوم كما أمرنا

اعلم أخي أنْ ليس للإنسان إلا الذي سعى من الإحسان

لا يحمل الإنسان من أوزار قريبه شيئا ولا الأصهار

صل الفرائض مع الخشوع رتل سجودك مع الركوع

أوجب ربنا إقامة الصلا ة لا وجودها كما قد انجلا

لذاك كملها بلا نقصان بالشرط والآداب والأركان

حان مماتك وأنت تلعب مثل منافق يصلي يلعب

ينقر في الصلاة نقر الديك ما نال غير لعنة المليك

نصوا بأنه كإنسان ملك جارية ماتت وأهداها الملك

وكن إذا دخلت في الصلاة كمثل شخص كان في الوفاة

لم يك للفذ سوى الذي عقل من الصلاة دون ما كان غفل

نفل الصلاة فضله مأثور وذنب من لازمه مغفور

يا أيها العاقل صم شهر الصيام من غير تفريط وثن بالقيام

وزك أموالك دون نقص إن وجد النصاب دون وقص

خسران شخص مانع الزكاة معاين دنيا بلا ممات

رسول رب العالمين حذرا عن كنـز مال فـاز مـن تشمر

إلى امتثال أمر ذي الجلال سبحـان ذي الجـلال والكمال

لمانع الزكاة ذي الخسران نار مع الحميم والثعبان

لم يك في الكنز سوى الخسران والطرد واللعنة والنقصان

هذا الذي هول كل عاقل عن منع حق الله دون غافل

نفل زكاة المال قد قدمت فيه كفاية وما ونيت

فضل تطوع الصيام قد ورد في الذكر والسنة للذي اقتصد

سعي بأقدام أو الرحال لقصد حج بيت ذي الجلال

177 أوجبه الله على الذي قدر دون تخلف وفي الذكر ذكر

178 أما جهاد الحرب فأعلم أنه فرض كفاية وعظم شأنه

179 ذر التكاسل عن الجهاد جاهد بجد كل ذي عناد

180 اعلم أخي أن الرحيم بشرا أهل جهاد الحرب ثم أعذرا

181 جميع من يقول لو علمت فضائل الجهاد ما ضعفت

182 إذ أنبأ الله بأنه اشترا نفوسنا ومالنا وأخبرا

183 أن الجنان رأس ماله لمن يقاتل الكفار حبذا الثمن

184 المشتري الله وسيد الوجود واسطة بين العباد والودود

185 جهز بأموالك جيش المؤمنين إن كنت ذا عذر تكن من محسنين

186 للشهدا يغفر أول الملا قة إلهنا تعالى ذو العلا

187 هو الذي يمنع كل الأرض من أكل لحم الشهدا والقرض

إي والذي جعلهم أحياء مع التمتع كما أن شاء

وهو الذي أمنهم من الفزع تاج الكرامة لهم بلا جزع

إن قلت هل لهم شفاعة أقل نعم بلا شك وريب يا رجل

لواحدٍ اِثنان معْ سبعينا حوراء قبل بعث عالمين

هنّا همُ الله بنيل الأمل بلا حساب وبدون الوجل

خاف المنافق من الممات قبل تمام أجل الفوات

بل جعل النجاة في التخلف عن المعارك بلا توقف

يظن أن أجل الإنسان يزداد أو يكون بالنقصان

رضي بالسخط وبالعتاب هارب يوم الزحف والعذاب

بشر من أخلص في الجهاد بنيل مال أو ثواب الهادي

اعلم بأن الأمر والنهي على ذي قدرة أوجبه رب علا

تبا لمن مكن في البلاد ولم يغير منكر العباد

عليك بالسنة والكتاب جانب ذوي الزيغ عن الصواب

ما أفسد الدين سوى الملوك وعلماء السوء بالأفوك

لم يربحوا في بيعهم نفوسهم وما غلت في بيعهم أثمانهم

ورتعوا في جيفة يبين إنتانها لعاقل يدين

نختم بالصلاة والسلام على الذي بشر بالختام

مقدمة الشارح

الحمد لله الذي سلك بأحبائه سواء السبيل، ووفقهم لمرضاته فنالوا الجزاء الجزيل

والصلاة والسلام على من بعث معلما وميسرا سيدنا ومولانا محمد الذي نور العالم بجوامع الكلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الذين حفظوا دينه وأذاعوه فصار مصباحا والتابعين نهجهم إلى يوم الدين

وبعد، فيقول أفقر العبيد إلى مولاه وأحوجهم إلى فضله ونعماه الغني به عمن سواه طالبا من مولاه العلي التوفيق بمنه سعيد النور بن منتقى بن أحمد لما طالعت قصيدة **تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين** وفهمتها فهما جيدا هممت أن أضع لها شرحا مناسبا ليسهل للطالبين فهمها واستخراج المعاني الكامنة فيها، وسميتها "**هبة الراغبين في شرح تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين**".

ونسأل الله العلي القدير متوسلين بأكمل الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ويجعله خالصا لوجهه الكريم ومن الأعمال التي لا تنقطع بالموت إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير.

وها أنا أشرع في المقصود بعون العلي القدير نظرا لأهمية المقدمة سأشرح منها بعض الفقرات، والآية قبل شرح الأبيات وأجعل كلامه رضي الله عنه بين القوسين.

وقال الحاج عمر الفوتي رضي الله عنه

«فاعلم يا أخي رحمك الله أني تصفحت آية من كتاب الله وأمعنت فيها النظر فوجدتها ناهية عن جميع المعاصي القلبية والجوارحية وآمرة بجميع الطاعات الظاهرة والباطنة» وقوله صفحت أي نظرت نظرة تأمل وتدبر آية من كتاب الله، وقوله «أمعنت النظر فيها » أي دققت النظر في الآية « فوجدتها » أي الآية « ناهية عن جميع المعاصي القلبية ». أي تنهي عن جميع المعاصي القلبية أي التي تنشأ من القلب كالرياء والحسد والكبرياء والعجب والسمعة والحقد وحب الدنيا، وتنفّذ هذه المعاصي السمع والبصر واللسان واليدان والرجلان والبطن والفرج، وأصل صلاح هذه الجوارح وفسادها من القلب, لأنه كالسلطان والجوارح كالأجناد له لا تفعل إلا ما أمرها به القلب. لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب[1]} .

والآية القرآنية هي قوله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ...﴾ وتفسير الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ نادى الله تعالى المؤمنين أي يامن آمنتم بالله ورسوله ﴿لا تلهكم﴾ أي لا تشغلكم أموالكم وأولادكم، وإنما يشغل الإنسان هو القلب الذي هو أصل كل خير وكل شر، فواجب على كل إنسان الاهتمام به، وصرف العناية إلى إصلاحه وتقويمه، قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾(

3

)، والمعاصي القلبية هي العجب والكبر والحسد والبغض والرياء والسمعة وحب الدنيا، هذه المعاصي تؤدي إلى قسوة القلب حتى لا يتأثر بالمواعظ، ولا يرق ولا يلين عند ذكر الموت والوعد والوعيد. عن ابن عمر رضي الله عنهما

[3] - سورة الشمس: الآية 9

[3] - متفق عليه. رواه نعمان بن بشير

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي"[2]

وقال أيضا:{من الشقاء أربع: قسوة القلب، وجمود العين، والحرص، وطول الأمل}[3]، ﴿أموالكم ولا أولادكم﴾ الآية، إن الأولاد والأموال إذا اشتد الحرص عليها يفسدان دينَ صاحبهما، ﴿عن ذكر الله﴾ الآية، أي بأداء فرائض الله، واجتناب نواهيه، والإكثار من طاعته، والتقرب إليه بأنواع القرب، الذكر جمّاع لكل أنواع العبادات القلبية والجوارحية، قال تعالى: ﴿الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[(4)]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت}، والمعنى أن القلب الذاكر كالحي والقلب الغافل كالميت، وقوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾، أي من ألهتهم أموالهم وأولادهم عن عبادة الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾، أي يوم القيامة بحرمانهم من الجنة ونعيمها، ودخل في هذا الجزء جميع المنهيات القلبية والجوارحية، ﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ أمر الله في هذا الجزء جميع العبادات القلبية والجوارحية، الذكر انفاق بالقلب واللسان، وكذلك الصلاة والجهاد إنفاق بالجوارح، وذكّرنا الله بأننا ومالنا ملك لله، قال تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[(5)]، وقوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾، أي على الإنسان أن يغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، وقال عليه الصلاة والسلام:{ اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك[5]}، لقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[4] - سورة الحديد: الآية 7.
[5] - سورة الحديد7

3 _رواه بزار
4 - متفق عليه
5 - أخرجه الحاكم في المستدرك

باغتنام هذه الخمس، لأن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت، لعل لم يبق من أجله إلا الشيء اليسير، وهو مقبل على دنياه، ومعرض عن آخرته حتى فاجأه الموت وهو على تلك الحالة، ورجع إلى الله غير مستعد للقائه، وربما يتمنى الإمهال عندما ينزل الموت به كما أخبرنا الله سبحانه: ﴿فيقول: رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾، أي رب لولا أمهلتني إلى وقت قريب فأصدق بمالي وأكن من عبادك الصالحين، فأحج وأتقرب إليك بما تحب من أنواع القربات والطاعات، ولكن فلا يجاب بمطلبه كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[6].

وقيل إن ملك الموت يظهر للإنسان عندما يبقى من أجله شيء يسير فيُخبره به فيقول له: يا ملك الموت أخرني قليلا لأتوب إلى ربي وأستغفره، فيقول له الملك: قد طالما أخّرت وعمّرت فلم تتب ولم ترجع إلى ربك حتى الآن، الآن قد انقضت المدة، وبلغ الأجل الذي كتبه الله لك، ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها﴾، أي لا تأخير إذا حضرت الوفاة، لكل أجل كتاب، ﴿والله خبير بما تعملون﴾[7]، أي إن الله مطلع على أعمالكم وخبير بها.

وأهمية هذه القصيدة أنها تم نظمها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الروضة المشرفة بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه رضي الله عنه متوجه إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم، ومطلع القصيدة:

يَقُولُ فُوتِيٌّ وَذَاكَ الأَفْقَرُ الكَدِوِيُّ ابْنُ سَعِيدٍ عُمَرُ

---

[6] - سورة المؤمنون: 99 – 100.

[7] - سورة المنافقون: 9-10

« **يقول**» فعل مضارع من القول، الذي يدل على حدث وقع في زمان التكلم، والبعض يبدؤون تآليفهم بصيغة الماضي الذي يدل على حدث وقع في زمن مضى وانقطع قبل زمان التكلم، ومقتضى الحال أن يبدأ الناظم والكاتب بصيغة المضارع لأنه لم ينته بعد،

«**فوتيّ**»: نسبة إلى فوت، و فوت اسم قطر بين سنغال وموريتانيا، وسكان فوت يتكلمون اللغة الفلانية، والجميع مسلمون، وأغلبهم أهل ورع وتقوى وصلاح، وأصبح الفوتي علما له رضي الله عنه،

«**ذاك**»: إشارة للمتوسط، «**الأفقر**»: اسم التفضيل أي المحتاج إلى رحمة ربه الغني، «**الكدوي**»: اسم الضياع التي كانت مزرعة لأجداده، وأصبحت تنتسب إليها عشيرتهم وكبير الأسرة يلقب بإمام كدو،

«**ابن سعيد**»: بدل لفوتي سعيد هو اسم والده، وسعيد ابن عثمان بن مختار بن صَنْبَ،

«**عمر**»: اسمه رضي الله عنه، واسم والدته آدم بنت عائشة، بدأ رحمه الله بتسمية نفسه لأن معرفة مؤلف الكتاب من مهمات الأمور، وهو فوتي إقليما، ومالكي مذهبا، وتجاني طريقة، وكان عالما عابدا، وجاهد في سبيل الله، وحج ثلاث مرات، واتفق علماء عصره وحكماء زمانه قاطبة على براعته علما وعملا وأذعنوا له في التبحر في العلوم كما في **الدرع و المغفرة** ما نصه:

وحدثني أحمد بن محم أنه سمع العالم المحجوبي الولاتي وهو عالم متفنن وحاذق متقن أخذ من كل مذهب نصيبا يقول: لم ترعيني مثل الشيخ عمر، وقد قرأت في تيشيت وشنقيط وولات وهي مسقط رأسي، ومحط رحلي، فلم أر مثله، انتهى.

وفي **روض الشـــمائل** من أنه إذا تعطلت الكتب من الدنيا يقدر أن يملها على الناس من حفظه، ولفظه: له رضـــي الله عنه الهمّة العليا، والعزيمة المثلى إلى أن أوصله الله أرضـا بعيدة عن أوطانه مع كونه ملازم الحروب في كل زمن من الأزمنـة، ففتح كثيرا من البلـدان، وقهر كثيرا من الجبـابرة والمعاندين، ونشـر المعالم الإسـلامية في تلك البقاع، وأجبر ملوكا جبابرة على الـدخول في الإســلام على رغمهم، فكـانـت حيـاتـه عزا وفخرا للإســلام وللمســلمين، وتخرّج من يـده أعظمُ عـدد من العلمـاء الأجلاء والفقهـاء النبلاء، والعارفين بالله الصلحاء، وبفضله خرجت الأقاليمُ السـودانية من الظلمات إلى النور، وغاب شـهيدا في جبل دَغِمْبِرِ في يوم الجمعة الثالث من رمضـان عام 1280 موافقا اثني عشـر من فبراير سـنة 1864 وله من العمر سبعون سنة.

وله مؤلفات عديدة فمنها **ســيوف الســعيد المعتقد في أهل الله كالتجاني على رقبة الشـقي الطريد المنتقد الجاني**، وكتاب **سـفينة السـعادة لأهل الضعف والنجادة**، **ورماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم**، **وتذكرة الغافلين عن قبح اختلا المؤمنين**، **والسيف الحق المعتمد في بيان ما وقع بينه وبين أحمد بن أحمد**، **وهداية المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله وحقوق العباد أجمعين**، **والمقاصـد الســنية لكل موقن من الدعاة إلى الله من الراعي والرعية**، **وتذكرة المسـترشـدين وفلاح الطالبين** الذي نحن بصـــدد شـــرحه وغيرها، وذريته مازالوا يتناوبون هذه المهمة الإســلامية كابرا عن كابر، ولا يخلو زمن إلا ويوجد منهم رجال صـــدقوا ما عـاهـدوا الله عليـه، فمنهم من قضـــى نحبـه، ومنهم من ينتظر، ومـا بـدلوا تبديلا.

الْـحَـمْـدُ للهِ الَّـذِي تَـوَحَّـدَا فِي مُلْكِـهِ كَفَرَ مَنْ قَـدْ جَحَـدَا

ولما كانت القصيدة من الأمور ذات البال افتتحها بالحمدلة عملا بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: كل أمر ذي بال ولم يبدأ بالحمدلة فهو خداج[6]، أي ناقص البركة، واقتداء بمنزل الكتاب العزيز وجاء في الأثر:{ تخلقوا بأخلاق الله}، أي بالأخلاق التي يليق للبشر التخلق بها كالحلم والكرم، وبالبدء بما بدأ به كتابه «الحمد لله»، الحمد لغة الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، قال الإمام الطبريّ في تفسير الفاتحة: الحمد لله ثناء أثنى به تعالى على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه، فكأنه يقول: قولوا الحمد لله، اهـ

«الذي توحّد»: فعل ماض مزيد بالتاء والتضعيف، ومضارعه يتوحد نعت لله، أي المنفرد والواحد «في ملكه»، أي فيما ملك لم يشاركه أحد في ملكه، له حق التصرف والاستبداد، وإذا أراد أن يفعل شيئا لا يستأذن أحدا، ولا يحتاج إلى معين، وهو القاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[8]، «كفر»: الكفر ضد الإيمان، أي خرج من دائرة الإيمان،« من جحد» من جحد يجحد جحدا وجحودا، أي أنكر مع علمه به، يعني أن كل من أنكر إفراد الله في ملكه فقد كفر، ويعد من الكافرين، وكل من أنكر وحدانية الله في ذاته وصفاته وأفعاله فقد كفر، أو استحل محرما، أو حرم حلالا، أو جحد ما علم من الدين بالضرورة كالصلاة، أو أنكر نصا صريحا، أو ادعى نبوة بعد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن صدقه في دعواه فهو أيضا مرتدّ لتكذيبه القرآن، وقوله عز وجل: ﴿وخاتم النبيين﴾[9]،

---

[6]- أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه باختلاف يسير

[8] - سورة الأنبياء: 22

[9] - سورة الأحزاب:40

والسنة لقوله عليه الصلاة والسلام: أنا العاقب لا نبي بعدي[8]، والتشبه بالكافر يؤدي إلى الكفر في الحديث: من تشبه بقوم فهو منهم[9]، وقال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[10]، وعلى العبد أن يتجنب من أنواع الشرك والحلف بغيرالله شرك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم أن يحلف الرجل بغير الله، وجعل ذلك من الشرك بالله ففي الأثر:{ من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك}، ومن أنواع الشرك أن تقرن مشيئة الله بمشيئة غير الله، إن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت قال له النبي ﷺ: {أجعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده}[10].

إِلَـهَـنَـا صَـلِّ دَوَامًـا سَـلِّـمِ عَلَى الرَّسُـولِ الْمُصْـطَفَى الْمُكَرَّمِ

«إلهنا»، الإله اسم الذات الواجب الموجود المعبود بحق، «صل»: فعل الدعاء، والصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومنا الدعاء، وقيل حسن الثناء من الله عزوجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، «دواما»: مصدر من دام يدوم دواما وديمومة، أي ثبت وامتد واستمر، وواظب عليه،« سلم»: فعل الدعاء، أي أمّنه السلام، وهو الأمان، وطيب التحية والإكرام، والجمع بين الصلاة والسلام هو الأولى والأكمل لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾[11]، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الواجبات مرة واحدة في العمر، لأن الله حث على عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه، وفضائل الصلاة عليه كثيرة، وسنأتي بها إن شاء الله تعالى في آخر الكتاب.

---

[10] - سورة المائدة: 51
[11] - سورة الأحزاب 50

8- في شرح الموطأ للزرقان
9- رواه عبد الله ابن عمر
10- رواه ابن ماجه

«على الرسـول»: أي النبي المأمور بتبليغ ما أوحي إليه، والرسـول إذا أطلق في القرآن أو السـنة فإنما المراد به نبينا محمد صـلى الله عليه وسـلم، فهو الرسـول المطلق لكافة الخلق من الأولين والآخرين، فرسـالته عامة، ودعوته تامة، ورحمته شـاملة، «المصـطفى»: أي الذي اختاره الله من بين خلقه، فيحمل الأمانة الكبرى، «المكرم»: الذي أكرمه الله بإرسـاله إلى كافة الناس، وبالإسراء والمعراج.

يَـا أَيُّهَـا الإِخْـوَانُ لاَ تَشْـتَغِلُـوا بِـالْمَـالِ وَالْـبَنِينَ خَيْرًا اعْمَلُوا

«يا أيها الإخوان»: وجَّه رضي الله عنه نداءه إلى كافة المسلمين لأن المسلمين كلّهم إخوان، عن عبد الله بن عمر رضـي الله عنهما أن النبي ﷺ: {المسـلم أخو المسلم، لا يسلمه ولا يظلمه}[11]، وقال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[12]، «لا تشتغلوا»: لا ناهية، تشتغلوا مجزوم بلا، أي لا تلهكم ولا تجعلوا همّكم وأفكاركم متعلقة «بالمال»، المال: هو كل ما يملكه الفرد من متاع أو تجارة أو عقار أو نقود، والمال عند أهل البادية يطلق على النعم والمواشـي، يذكر ويؤنث، «والبنين»: أي الأولاد ذكورا وإناثا، ويحذرنا رضـي الله عنه أن نشـتغل بالمال والبنين وننسـى الله تعالى، والمعنى أن نتجنب الانهماك في الدنيا، ويكون أكبرُ همنا هو جمع المال، ولا نبالي من أين جمعناه، وكيف جمعناه، ثم نسـرف في إنفاقه على وجه غير مشـروع، كأنه خلِقَ في هذه ليخلد، ويتناول ما يشـاء من شـهواته، ولو كان في غضـب الله، جاء في الترمذي عن أبي برزة أن رسول الله ﷺ قال: {لا يزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين

[11]- في صحيح البخاري

[12] - سورة الحجرات: 10

اكتسبه وفيم أنفقه، وعن شبابه فيم أبلاه}[12]، واشتغال بالمال والبنين يصد عن ذكر وعن الصلاة، والأولاد والأموال وسيلتان لنيل رضى الله بأن نُعلم الأولاد الخير، وننفق أموالنا في سبيل الله، «خيرا اعملوا»: وخيرا مفعول لِ اعملوا، وتقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر، أي أن تكون عاملا الخير لا غيرُ، لأن العمل هو الذي ينفع الإنسان في الدنيا والآخرة، لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء. إن الله سبحانه حث على العمل الصالح في كتابه الكريم في آيات كثيرة، وأساليب متنوعة، تارة يأمر به ويوجه إليه: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، واعملوا صالحا، إني بما تعملون عليم﴾[13]، ﴿يا أيها الذين ءامنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾[14]، وتارة يعد بالثواب الجزيل عليه حيث يقول: ﴿من ءامن وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[15]، ﴿إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾[16]، ولكن متى يكون العمل صالحا؟ لا يكون العمل صالحا عند الله إلا إذا توفر فيه شرطان أساسيان: الشرط الأول: أن يكون خالصا لوجه الله من شائبة شرك، والشرط الثاني: أن يكون وفق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاليا من البدع والمحدثات، إن المال له محاسن، وله مساوئ، والحكم لما غلب منهما، فإن غلبت محاسنه على مساويه صار خيرا لصاحبه عاجلا وآجلا، وإن غلبت مساويه على محاسنه صار شرا على صاحبه عاجلا وآجلا، ومن هنا كان المال فتنة كما قال تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾[17]، وعلى المسلم أن

[12]- رواه الترمذي

[13] - سورة المؤمنون: 51
[14] - سورة الحج: 77
[15] - سورة البقرة: 62
[16] - سورة الكهف: 107
[17] - سورة الأنفال: 28

يعتدل في طلب الأموال، فيطلبها باتزان واعتدال على وجه لا يصدنا عن ذكر الله وطاعته، لأن الله أمرنا بالعمل الصالح النافع لديننا ولدنيانا، والإسلام لا يأمر أتباعه بالإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا، لأن ذلك رهبانية مذمومة كما جاء في الحديث: {لا رهبانية في الإسلام}[13]، بل يأمرهم أن يقبلوا على الدنيا فيملؤوها بالخير، ولا ينسوا أن أمامهم آخرة ينتظرهم حسابها، فيأخذوا من دنياهم لآخرتهم، قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك﴾[18].

هَمٌّ وَغَمٌّ دَائِمٌ لِلْمُشْتَغِلْ بِالْمَالِ وَالأَوْلاَدِ دُونَ اللهِ جَلْ

«هم وغم» وزنا ومعنى، معناهما واحد، أي القلق والحزن والكرب، دائم: أي ثابت ومستمر، «للمشتغل»: أي الذي جعل شغله حصولهما، «المال والأولاد دون الله جل»: دون عبادة الله جل جلاله، وعز كماله، وهذه الأموال فتنة للمشتغل في تحصيلها، وفتنة في تمويلها، وفتنة في إنفاقها، فمن كان له مال كثير يكون المال أكبر همه، وشغل قلبه إن قام فهو يفكر فيه و ان قعد فهو يفكر فيه و ان نام كانت أحلامه فيه فالمال ملأ قلبه و شغل فكره يقظة ومناما وحتى في العبادة فهو يفكر في ماله و في الصلاة، و القراءة، و الذكر، كأنما خلق للمال وحده فهو النهم الذي لا يشبع و نسي ذلك المشتغل لا يأتيه من الرزق الا ما كتب له ، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، وصاحب المال مسؤول عنه قليله وكثيره في موقف لا ينفع فيه إلا الصدق، تسأل من أين اكتسبته وفيم أنفقته؟ فما جوابك

[18] - سورة القصص: 77

[13]- رواه طاووس بن كيسان اليماني حديث مرسل

حينذاك؟ وما عاقبتك بعد هذا الجواب؟ عن ابي ذر الغفار رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : {يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهديكم يا عبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل و النهار و انا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني

يا عبادي لو ان أولكم و آخركم و انسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو ان أولكم و آخركم كانوا أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو ان أولكم و آخركم و انسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر يا عبادي انما هي أعملكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه}[14]

أيها المسلم لا يحملنك حب المال على المغامرة في اكتسابه وجمعه دون تفكير في عواقبه، لا يحملنك حب المال على أن تكذب في معاملتك، أو تفجر في خصومتك، أو تحلف اليمين الغموس لتروج بها مبيعاتك، أو تغش في سلعتك، أو تخدع إخوانك، أو تطفف المكيال والميزان، أو تتعامل بالربا، عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا وقال: ما هذا يا صاحب

الطعام؟ قال أصابته السماء يا رسول الله قال: أفالا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس : {من غش فليس مني}[15].

14_الحديث القدسي

إِذْ هَذِهِ الدُّنْيَا غُرُورٌ بَاطِلُ وَاعْمَلْ لِدَارٍ دَائِمٍ يَا غَافِلُ

إِذْ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ لَكِنْ زَائِلُ فَهْوَ غُرُورٌ اعْتَبِرْ يَا عَاقِلُ

«إذ» حرف بمعنى التعليل، «هذه الدنيا» هي الحياة الحاضرة نقيض الآخرة،« غرور»: أي خدع، وهو الطمع بالباطل، وتوصف الدنيا به، فيقال: الدنيا الغرور، «باطل»: نعت لغرور، أي ضد الحق، لأن الدنيا وما فيها غرور باطل غير ثابت كأنها حلم كما قال الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه في كتابه زجر القلوب:

فإن تسأل الدنيا فإن أمورها كأضغاث أحلام تبدو وتغيب

قال تعالى:﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[19]، الغرور هو الدنيا، وكم في كتاب الله من تحذير الاغترار بهذه الدنيا وذمها، وبيان سرعة زوالها، وضرب لها من الأمثال ما يكفي بعضه زجْرا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وكل حي فيها يموت، وكل قوي يضعف، وكل جديد يبلى، إذًا «اعمل لدار دائم»: أي واسع لدار باق هي الآخرة، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

15_ في صحيح مسلم

19 - سورة لقمان: 5

{ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع}[16].

«إذ»: أي لماذا كانت الدنيا غرور باطل، لأن كل شيء فيها،« كان»: أي بمعنى وجد، «لكن زائل»، أي ذاهب، فهو: أي الكائن والموجود غرور: ليس موجودا حقيقة، بل السراب تظنه ماء وليس بماء، «اعتبر»: أي تفكر في سرعة زوال الدنيا،« يا عاقل»: أي يا زكي و يا فطن.

وإن الدنيا في الحقيقة لا تذم لذاتها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة، وإنما يذم فعل العبد فيها من اشتغاله بالشهوات، والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، وإلا فالدنيا مزرعة للآخرة، ومنها يؤخذ زاد الآخرة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: { إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يتخبط في ماله بغير حق ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم فيه لله حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء}، وقوله:« يا غافل»: الغافل هو الذي أهمل ما كان ينبغي أن يفعله في وقته، وروي عن كعب الأحبار رضي الله عنه: {لا يمر أحد من المقابر إلا وتناديه أهل القبور: يا غافلا لو علمت ما نحن فيه لذاب لحمك كما ذاب الثلج على النار}.

16_ متفق عليه

17– رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

لاَ تَطْلُبُوا فِيهَا سِوَى مَا يَنْفَعُ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ لاَ مَا يَرْدَعُ

«لا تطلبوا»: لا ناهية، أي أيها الإخوان «لا تطلبوا فيها»، أي في الدنيا «سوى» أي غير« ما ينفع»: أي غير الذي ينفعك «في الحال»، الحال هو الدنيا، العاجل «والمآل»: أي المرجع هو الآخرة، والآجل، «لا ما يردع»: الردع هو الكف والزجر، والمنع من ارتكاب شيء، والرد بالعنف، أي ما يردك إلى مقرك خائبا خاسرا، يعني لا تطلبوا في الدنيا سوى ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، أي أن تجعل الدنيا مزرعة الآخرة، وطريقا موصلة إليه، فلا ينتهي الإنسان إلى دار الآخرة إلا بعد سلوكه في دار الدنيا، ومن زرع فيها حسنا حصده في الآخرة، ومن عمل عملا وجده هناك، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:{ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل}[18]، وكان النبي ﷺ يقول:{ ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها}[19] قال أي استراح ومعنى الحديثين: كن في الدنيا على أحد حالين: إما أن تكون كأنك مقيم في بلد غربة، همك التزود للرجوع إلى أرض الوطن، أو تكون كأنك في مواصلة السفر غير مقيم أصلا، بل تسير دائما إلى بلد الإقامة، وفي كلا الحالين لا ينبغي لك أن تشتغل بالدنيا، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنا وسكنا فيطمئن فيها، ولكن ينبغي له أن يكون فيها كأنه على جناح سفر، يهيء جهازه للرحيل، وقال مؤمن من آل فرعون: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾[20]، وإذا كان الأمر ذلك اطلب

[18]- في صحيح البخاري
[19]- أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد, حديث حسن

[20] - سورة غافر:39

لنفسك زادا يوصلك إلى مقرك، قال رسول الله ﷺ:{ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني}[20]، وسئل علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه عن أكيس الناس؟ قال الله ورسوله أعلم قال ﷺ:{ إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم له استعدادا، أولئك هم الأكياس}[21].

ذَرُوا عَبَادَ اللهِ مَا يُشْغِلُكُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي وَاعْمَلُوا لِرَبِّكُمْ

«ذروا»: ذر فعل أمر من وذر يذر، بمعنى: دع واترك، «عباد الله»: منادى حذف حرف الندا، أي يا عباد الله،« ما يشغلكم»: أي ما يلهيكم ويمنعكم، «عن ذكر ربي»: أي أن تتذكر لقاء ربك، المعنى أن يكون الموت دائما أمامك، وتكثر من ذكره، وتستعد له، الذكر جمَاع لكل أنواع العبادات، «واعملوا لربكم»: أي ودموا على الأعمال التي تقربكم إلى مرضاة ربكم، وأن تكثروا لأعمال التي تزيد الإيمان، ومن هذه الأعمال زيارة القبور، والصدقة لله تعالى خالصة، وعلى العاقل أن يدوم على مكفرات الذنوب، ومنها كثرة قراءة صلاة الفاتح، وفي جواهر المعاني: واعلموا أن بحر الذنوب في هذا الزمان لا قدرة لأحد على الانفصال عنها، فإنها تنصب على الناس كالمطر الغزير، لكن أكثروا من مكفرات الذنوب، وآكد ذلك صلاة الفاتح لما أغلق، فإنها لا تترك من الذنوب شاذة ولا فاذة، وقال في محل آخر: وأقلها مائة في الصباح والمساء، فلا يلحقها في هذا الميدان عمل من أي عامل، ولا ينهي إلى غايتها أمل من أي أمل، ومنها حكاية الأذان، عن سعيد بن ابي وقاص قال

[20]-أخرجه الترمذي وابن ماجه، حديث حسن

[21]- حديث ضعيف

قال رسول الله ﷺ: {من قال حين يسمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله: قال أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر}[22].

ومكفرات الذنوب كثيرة، من أرادها فليطالعها في كتب الحديث، أو يراجع رماح حزب الرحيم.

يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ بِالْآمَالِ وَيْحَكَ تُبْ وَاقْصِدْ إِلَى الأَعْمَالِ

«يا أيها المغرور بالآمال»، المغرور اسم مفعول، أي المخدُوع بالأمل «الآمال» جمع أمل و هو الرجاء, و لا ينبغي للمسلم أن يطوّل الامل لأن الأجل مغيب لا يعلمه الا الله و كم يتمنى المرء تمام شهره و هو لا يعلم هل سيكمله و لذلك قال سيدنا أبو بكر الصديق في خطبته «انكم تغدون و تروحون الى أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم ان لا يمضي هذا الأجل الا و انتم في عمل صالح فافعلوه».

وروي عن ابي هريرة أن النبي ﷺ قال:{من خاف أدلج و من أدلج بلغ المنزل ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة}[23] و قال أيضا:

{الكيس من دان نفسه - أي حاسبها - وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني} ويبغي على المسلم ان يكون بين الخوف والرجاء يخاف عقاب الله من ذنوبه ويرجو رحمة ربه وروى الترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب

---

[22]-في صحيح مسلم

[23]- أخرجه الترمذي

وهو في الموت فقال ﷺ {كيف تجدك؟} قال و الله يا رسول الله اني أرجو الله و اني أخاف ذنوبي قال ﷺ { لا يجتمعان على قلب عبد في مثل هذا موطن إلا أعطاه الله ما يرجو و أمنه مما يخاف}[24]

وبعض الناس قد يغتر بصحته أو بشباب فيفسح لنفسه في تناول شهواتها المحرمة ويعجل التوبة اما اعتمادا على سعة عفو الله واما استبطاء للأجل وتمديدا للأمل وهذا من تغرير الشيطان للإنسان ومن تسويل النفس الأمارة بالسوء فان عفو الله سبحانه وتعالى كما أنه واسع فان عقابه شديد واما استبطاء الأجل وطول الأمل فانهما من غرور الشيطان فكم من عاص أخذه الله في ريعان شبابه ووافر صحته وكم من صحيح الجسم مات من غير مرض.

و في الحديث عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « اشترى أسامة بن زيد وليدة بمئة دينار الى شهر فسمع رسول الله ﷺ ذلك و قال:{ ألا تعجبون من أسامة المشتري الا شهر ان أسامة لطويل الامل و الذي نفسي بيده ما طرفت عيناي الا ظننت ان طرفي لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي و لا رفعت قدحا الى فيّ فظننت أني لا أضعه حتى أقبض و لا لقمت لقمة الا ظننت اني أسيغها حتى أغص بها من الموت و الذي نفسي بيده انما توعدون لآت وما انتم بمعجزين}[25] حديث مرفوع

«ويحك»: كلمة ترحم وتوجّع، وقد تأتي بمعنى المدح والتعجب، وقيل إنها ويل، « تب»: فعل أمر من تاب يتوب توبة أي ارجع عن معصيتك إلى الله، وطلب رضي الله تعالى عنه من المغرور أن تتوب إلى الله قبل فوات الأوان،

[24]-أخرجه الترمذي وابن ماجه

[25]- أخرجه ابن ابي الدنيا والطبراني.

لأن الله عز وجل أمر عباده بالتوبة، ورغبهم فيها، قال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[21]، ووعد بقبول التوبة وقال: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾[22]، وقال عليه الصلاة والسلام: {التائب من الذنب كمن لا ذنب له}[26]، وقال أيضا: {إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر}[27]، أي ما لم تبلغ روحُه الحلقوم حين الموت.

إن التوبة ليست هي قول العبد بلسانه: أستغفر الله وأتوب إليه من غير ندم، وبدون إقلاع عن الذنب، والعزم على ألا يعود إلى الذنوب ما عاش، كما قال صاحب المرشد المعين:

وتوبة من كل ذنب يجترم تجب فورا مطلقا وهي الندم
بشرط الإقلاع ونفي الإصرار وليتلاف ممكنا ذا استغفار

وعلى هذا المعنى يجب على من تاب و ترك شيئا من الفرائض اللازمة أن يتدارك ما فاته من ذلك بالقضاء حسب الاستطاعة والإمكان، ويجب على الإنسان الإكثار من الاستغفار والتوبة لأنهما يسببان نزول الغيث، وتوفر المياه، وكثرة الأموال والأولاد، والبركة في البساتين والثمار، قال تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾[23]، إذن

---

[21] - سورة النور: 31.
[22] - سورة المائدة :39
[23] - سورة نوح:12-10

[26]- أخرجه ابن ماجه
[27]- أخرجه أحمد

فالتوبة والاستغفار من كنوز الخيرات، ومن أعظم أبواب القربات والبركات، ومن أوْصل الوسائل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، إن فضل الله تعالى على عباده عظيم، ورحمته بهم واسعة، يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها}[28].

أيها العاقل اغتنم فرصة الحياة قبل أن يأتيك الموت، إذ لا تقبل توبة الذي عاين الموت وآيس من الحياة، فتلك لا تقبل، وإنما تقبل توبة العبد ما لم يغرغر كما في الحديث. ولا ينبغي للمخطئ والمذنب أن يقنط من رحمة الله، قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾[24]، وعلى العبد أن يتوب ويسأل من ربه الإعانة والتثبيت، ثم إن غلبته نفسه على العود إلى الذنب فليغلبها على العود إلى التوبة، «واقصد إلى الأعمال»: أي توجه إلى الأعمال الصالحات، لأن الإيمان بدون العمل لا ينفع، والعمل أيضا بدون الإيمان أيضا لا يفيد صاحبه، والمعنى: وليعقب التوبة الإكثار من العمل الصالح المقترن الإخلاص لله تعالى، وقوة اليقين، يقول تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾[25]، وقال أيضا: ﴿واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾[26].

---

[24] - سورة الزمر: 53.
[25] - سورة طه: 82.
[26] - سورة المؤمنون: 51.

[28]- أخرجه مسلم

نَـكَـالُ رَبِّ الْـخَـلْـقِ وَالـنِّـيـرَان لَمْ يَنْجِ مِنْهَـا الْمَـالُ وَالْوِلْـدَانُ

أَجَـلْ وَلاَ جَـاهٌ وَلاَ قَـرَابَـهْ وَلاَ شَـجَـاعَـةٌ وَلاَ حَـرَابَـهْ

«نكال»: من نكل ينكل نكالا، وجمعه نكول وأنكال، ويطلق على العذاب، وحديدة اللجام أو الزمام، أو قيد شديد من أي شيء كان، قال تعالى: ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما﴾[27]، النكال: عقاب أو نازل، قال تعالى: ﴿جزاء بما كسبا نكالا من الله﴾[28]، « رب الخلق»: هو الله سبحانه وتعالى، وهو خالقهم ومالكهم، ونكال رب الخلق متنوع، ومنه ما هو دنيوي، وما هو أخروي، وأما الدنيوي فأكثره يكون بسبب المعاصي، قال تعالى في بيان آثار المعاصي: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[29]، كنقص الزروع والثمار، كل ذلك بسبب المعاصي، وقال بعض السلف: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم، وجاء في الحديث: {ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بشدة المؤونة، وجور السلطان}[29]، ومن الأنكال كثرة الزلازل والبراكين والحروب التي تدمر البلدان، وتهلك عشرات الألوف من بني الإنسان، وتترك الكثير بلا مأوى، ونكال الآخرة متنوع، منه النيران، «والنيران» معطوف على النكال، النيران جمع نار، جوهر لطيف مضيء محرق، نقيض الجنة، وهو جزاء العصاة، لها سبعة أبواب: يقال: جهنم وجحيم وحطمة ولظى وسقر ودرك وهاوية، «لم يُنج»: من نجى ينجو، أي لا

[27] - سورة المزمل:12
[28] - سورة المائدة: 38
[29] - سورة الروم: 41.

[29]- حديث حسن، أخرجه الطبراني

يُخلِّص «منها»: أي من النكال و النيران «المال»: يعني أن عذاب الله والنيران لا يخلصك منها المال الكثير ولا الأولاد، قال تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[30]، «والولدان»: جمع ولد، «أجل»: حرف جواب بمعنى نعم، أي لا ينجيك من العذاب حتى «جاه»: أي شرف وعز، ولا «قرابة»: أي قريب من جهة الأب أو من جهة الأم، «ولا شجاعة»: أي الجريء المقدام الشديد القلب عند البأس، «ولا حرابة»: جمع حراب، آلة للحرب من الحديد قصيرة محدودة، وهي دون الرمح، والمعنى: يوم القيامة لا يُخلِّص الإنسان من شدته المال ولا الأولاد، بل المخلص هناك العمل الصالحُ هو الذي يُخلّصك من شدته، إذ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه عن السؤال أو الدفاع عن غيره، ولو كان أقرب قريب، قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[31]، وقال أيضا: ﴿إذ نسويكم برب العالمين، وما أضلنا إلا المجرمون، فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم﴾[32]، يجب على المسلم ان يستحضر هول هذا اليوم، ويستعد له، ولا يغفل عنه، أرأيتم لو أن الانسان أخبر في هذه الدنيا أنه سيلقى عدوا أو يواجه خطرا ماذا يكون تخوفه و استعداده للتخلص من ذلك مع أنه قد لا يتحقق، أو إذا تحقق فعنده من المال ما يفدي به نفسه، ومن الأعوان والعشيرة من يدافع عنه، أما يوم القيامة فخطر محقق، لا تنجي منه عشيرة ولا جاه ولا مال، فلماذا لا يستعد الإنسان له بما ينجيه من مخاطره وأهواله، والاستعداد له، أن يحافظ على الطاعات، ويتجنب المحرمات، قال تعالى: ﴿واتقوا يوما ترجعون

---

30 - سورة الشعرا:88-89

31 - سورة النازعات:34-37

32 - سورة الشعراء: 98 – 102.

فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[33]. إن مسيرة الكون والحياة كلها قائمة على طاعة الله وطلب رضاه وكل تقصير في جانبه سبحانه وتعالى من قبل خلقه يؤثر سلبا في تلك المسيرة، فطاعة الله تفيض بركة وكرامة على صاحبها ومحتبطة من الاحياء والجمادات. والمعصية كذلك بالعكس حتى إنها لتؤثر في أخلاق الناس والدواب وتصور معنى مجتمعا قد اتخذ قراره في رفض ومصادمة قوانين الكون فاستهان بغض ربه العزيز الحكيم واغفل سخطه سبحانه وتعالى ولم يبل به واكب على المعصي والذنوب والمجاهدة بها فهل ينتظر ذلك المجتمع الأخرابا وترجعا وتدهورا ونكالا من الله أعذنا الله منه.

إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْقِيَامَةْ يُحَاسَبُونَ هُمْ ذَوُو النَّدَامَةْ

مُزَوِّجُ كُلِّ امْرِئٍ بِمِثْلِهِ نَدِمْتَ مَا فَعَلْتَ مِنْ عِصْيَانِهِ

يعني: «إذا رأيت الناس يوم القيامة يحاسبون» أي بأعمالهم، «هم»: أي الناس،« ذوو الندامة»: أي يتأسفون ويتحسرون على ما فات من عمرهم، منهم من يقول: فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين، ومنهم من يقول: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾[34]، حتى لا أعذب، وذلك يوم يقول الله تعالى للحيوانات: كوني ترابا، وذلك بعد الاقتصاص لها من بعضها بعضا، ولولا شدته ودوامُه لما تمنى أن يكون ترابا أبدا، وروي من حديث معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾[35]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:{ يا معاذ ابن جبل، لقد

---

[33] - سورة البقرة: 281.
[34] - سورة النبأ: 40
[35] - سورة النبأ:18

سألت عن أمر عظيم}، ثم أرسل عينيه بالبكاء والدموع، ثم قال:{ تحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا، قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صورهم، فمنهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم مُنَكّسين أرجلهم أعلاهم ووجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم مُدَلاَّةٍ على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعابا، تقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مُصَلَّبُونَ على جذوع النار، وبعضهم أشد نتنا من الجيف، وبعضهم يلبسون جلاليب سابغة من القطران، فأما الذين على صورة القردة فالقتاد من الناس، يعني النمام، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت والحرام والمكس، وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم فأكلة الربا، والعمى من يجور في الحكم، والصم والبكم الذين يعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلّبون على جذوع النار السعاة بالناس إلى السلطان، والذي أشد نتنا من الجيف الذين يتمتعون بالشهوات واللذات، ويمنعون حق الله تعالى من أموالهم، والذين يُلبسون الجلالبيب فأهل الكبر والفخر والخيلاء}[30].

وقد ورد أنه تُعرض على الإنسان في الدار الآخرة ساعات أيامه ولياليه في هيئة الخزائن كل يوم وليلة أربع وعشرين خزانة بعدد ساعاتها، فيرى الساعة التي عمل فيها بطاعة الله خزانة مملوءة نورا، والتي عمل فيها بمعصية الله مملوءة ظلمة، والتي لم يعمل فيها بطاعة ولا معصية يجدها

---

[30]-حديث ضعيف للترهيب

فارغة، لا شيء فيها، فيعظم تحسره إذا نظر إلى الفارغة أن لا يكون عمل فيها بطاعة الله، وينظر التي عمل فيها بطاعة الله فيجدها مملوءة نورا يكون فيه فرحا مغتبطا على الدوام، يزيد فرحه واغتباطه على ممر الأيام، وأما التي يجدها مملوءة ظلمة لو قضي عليه أن يموت عند النظر إليها من الأسف والحسرة لمات، غير أنه لا موت في الآخرة، «مزوج»: أي مقرَّن، «كل امرء بمثله»: إنسان، بمثله: أي بقرينه، قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار، وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد، سرابيلهم من قطران، وتغشى وجوههم النار، ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب﴾[36]، يعني يوم القيامة يُشدُّ أيدي وأرجل المجرمين إلى أعناقهم، كلّ مع صاحبه ورفيقه في الدنيا، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: {المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل}[31]، وقال تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه، يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا وليلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، لقد أضلني عن الذكر بعد إذا جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾[37]، فكل من صاحب الظلمة فأضلوه عن سبيل الله فإنه سيندم يوم القيامة على مصاحبتهم، وعلى اعراض عن طريق الهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم و على المسلم أن يتجنب من مصاحبة الأشرار وجلساء السوء، وفي يوم القيامة يقول القرين لقرينه: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾[38]، «ندمت ما فعلت من عصيانه».

العصيان: ترك الطاعة، وعدم الانقياد، ويخبرنا رضي الله عنه في هذه الأبيات عن أهوال القيامة وشدتها، وسنحاول ذكر بعضا من هذه الأحوال،

---

[36] - سورة إبراهيم:51-48

[37] - سورة الفرقان: 27 – 29.

[38] - سورة الزخرف: 28.

[31]- أخرجه أحمد وغيره

عن ابي هريرة رضـي الله عنه قال النبي ﷺ:{ يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سـبعين ذراعا، وأنه يلجمهم حتى يبلغ آذانهم}[32]، عن سـلمان الفارسـي قال قال رسـول الله ﷺ :{ تدنى الشـمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل}[33]، أي الميل الذي تكحل به العين، وقيل لم يلق ابن آدم شـيئا منذ خلقه الله عز وجل أشـد عليه من الموت، ثم إن الموت أهون مما بعده، وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شـدة حتى يلجمهم العرق، حتى أن السـفن لو أجريت فيه لجرت، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال عليه الصلاة والسلام: {إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول: يا رب أرحني ولو إلى النار}[34].

جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:{ يا جبريل ما لي أراك متغير اللون؟ فقال: ما جئتك حتى أمر الله عز وجل منافخ النار، فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: صـف لي النار، أو أنعت لي جهنم، فقال: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضـت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسـودت، فهي سـوداء، لا يضـيء شـررها، ولا يطفئ لهبها، والذي بعثك بالحق نبيا لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من في الأرض جميعا من حرّه، والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من حلق سـلسـلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضـعت على جبال الدنيا لأرفضـت وما تقارت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبي يا جبريل، وإلا ينصدع قلبي فأموت}[35].

---

[32]- رواه البخاري

[33]- أخرجه ابن ابي شيبة

[34]- المحدث: الهيتمى في الزواجر

[35]- أخرجه الطبراني

وقد وصف الله سبحانه وتعالى النار ببعض أوصاف منها: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾[39]، ومنها: ﴿ويل للمطففين﴾[40]، الويل: واد في جنهم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره، ﴿وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾[41]، الحميم يغلى منذ خلق الله السماوات والأرض إلى يوم يسقونه، ويصب على رؤوسهم، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، قال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب﴾[42]، وقال أيضا: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾[43]، و عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام:{ لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم}[36]، فكيف بمن يكون طعامه، وقال تعالى: ﴿وطعاما ذا غصة﴾[44] أي شوك، يأخذ بالحلق، لا يدخل ولا يخرج، وهذا شيء قليل من أهوال يوم القيامة.

نَدَامَةً عَظِيمَةً لاَ تَنْفَعُ تُبْ قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَ مَا لاَ تُسْمَعُ

«ندامة»: مفعلو مطلق من ندمت، «عظيمة»: نعت، أي التأسف والندم بما فات حيث لا ينفع الندم، رؤي بعض الموتى في المنام فقال: ندمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة، أحدنا أحب إلينا من الدنيا وما فيها، و«تب»: فعل أمر من تاب يتوب، أي ارجع إلى ربك، قبل: «أن تطلب ما

[36]- أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد

[39] - سورة المرسلات: 32.
[40] - سورة المطففين: 1.
[41] - سورة محمد:15
[42] - سورة الكهف: 29
[43] - سورة الدخان:43-44
[44] - سورة المزمل:13

لا تسمع»: أي ما لا تقبل كطلب الرجوع الى الدنيا أو أن تسأل ما لم تظن أنك ستسأل عن ذلك لأن الله لا يترك مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ أي نستكتب الملائكة ﴿ما كنتم تعملون﴾[45]، أي أعمالكم، والشهداء على الناس كثيرة، منها: الملائكة لقوله تعالى: ﴿والملائكة يشهدون﴾[46]، ومنها: الأرض لقوله تعالى: ﴿وقال الإنسان ما لها يومئذ تحدث أخبارها﴾[47]، ومنها: الزمان كما قيل في الخبر: ينادي كل يوم: أنا يوم جديد، وأنا عليكم شهيد، ومنها: اللسان لقوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم﴾[48]، ومنها: الأعضاء لقوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[49]، ومنها: الملكان الكاتبان لقوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾[50]، ومنها الديوان لقوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾[51]، فكيف يكون حال العاصي بعدما شهد عليه هؤلاء الشهداء؟

أيها العاقل عليك أن تستدرك ما مضى بالتوبة والإنابة، وإصلاح ما بقي في طاعة مولاك، أما آن لك الرجوع إلى ربك، وإصلاح حالك قبل ارتحالك، أما آن لك أن تتوب إلى ربك من سوء ذنبك، وتستغفره من قبيح فعلك قبل أن يغلق عنك بابُ التوبة، فلا يبقى لك سوى الحسرة والندامة، لا شك أن كل إنسان معرض للخطأ، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فقد جعل الله تبارك وتعالى لعباده من الذنوب مخرجا، ومن الأوزار متنفسا، وهو التوبة، فإن الشيطان ينتهز هذه الفرصة فيدفع الإنسان إلى

---

[45] - سورة الجاثية 29
[46] - سورة النساء :166
[47] - سورة الزلزلة:3-4
[48] - سورة النور: 24
[49] - سورة يس:65
[50] - سورة الانفطار:10-12
[51] - سورة الجاثية:29

معاصي الله عز وجلن فينبغي للمؤمن دائما أن لا يأخر التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله، وورد في الأثر أن إبليس لعنه الله تعالى عندما طرده الله تعالى من الجنة، وأبعده من رحمته بسبب كفره وعناده وتكبره قال: وعزتك وجلالك لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:{ والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة}[37]، وقال أيضا:{ يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة}[38]، هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وفي هذا الحض على الاستغفار أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنه لا قيمة للاستغفار إذا لم يصاحبه إقلاع عن الذنب، فمن وقع في خطيئة أو ارتكب معصية فبادر بالتوبة والاستغفار، وأتبعها بالحسنة التي تمحوها كفرها الله عنه، و وقاه خطرها، يقول الله تعالى: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾[52]، عن معاذ بن جبل رضي الله عنهما قال قال صلى الله عليه وسلم: {اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن}[39].

وَلاَ يَغُرُّكَ الَّذِي عَلِمْتَهُ مِنْ رَحْمَةِ إله أَوْ سَمِعْتَهُ

«ولا يغرك»: الغرور هو أن يلبّس الإنسان على نفسه، ويريها الأمور على خلاف ما هي عليه، قال تعالى محذرًا لعباده من الغرور: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[53]،

---

[52] - سورة النساء: 110.
[53] - سورة لقمان: 5

[37]- في صحيح البخاري
[38]- رواه مسلم
[39]- رواه الترمذي

ويحتمل أن يكون المراد بالغرور الشيطان، فالشيطان يُظهِر الباطل في صورة الحق التى ينخدع به الناس، قال تعالى: ﴿قال: رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض، ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[54]، فالشيطان يُزيّن الفعل للإنسان رغم أنه سيضره حتى يُخيّل إليه أنه أنفع الأشياء، ويُنفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له حتى يخيل له أنه يضره، وقد زين الشيطان لآدم عليه السلام الأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، ونهاه عنها حتى جعلها في عينه أنها ستهب له الخلدّ فلا يموت، والملك الذي لا ينتهي ولا يزول، قال تعالى: ﴿قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾[55]، الشيطان يعد الإنسان الوعد الكاذب، والأماني المعسولة التي لا وجود لها، قال تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾[56]، فوعد الشيطان دائما كاذب وغرور، والأحمق هو الذي يُصدِّقه، وقد وعد الكفار من قبل بالنصر ثم تولى عنهم، وبرئ منهم، قال تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم﴾[57]، «الذي علمته»: أي علمته، «من رحمة الرحمن»: أي من سعة رحمة الله، وعلى الإنسان أن لا يتكل على رحمة الله تعالى، لأنه رؤوف رحيم، ولكنه شديد العقاب، وصفة المؤمن أن يكون دائما خائفا من ربه، لا يأمن على نفسه بحال، ولا يطمئن قلبه من عذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[58]، وقال أيضا: ﴿قل لمن ما في

---

54 - سورة الحجر: 39 – 40.
55 - سورة طه: 120.
56 - سورة النساء: 120.
57 - سورة الأنفال: 48.
58 - سورة المائدة:56

السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾[59].

إِذْ رَبُّنَا لَوْ كَانَ ذَا الغُفْرَانِ فَهُوَ ذُو النِّقْمَةِ وَالنِّيرَانِ

يعني: لو كان الله سبحانه وتعالى صاحب غفران وجنة، وهو أيضا صاحب نقمة،« النقمة»: هي العذاب في الدنيا، والنار في الآخرة، الجنة جزاء لأهل الطاعات، والنار جزاء لأهل المعصية، وغرّ بعض العصاة والمقصرين أن الله غني عنا وعن أعمالنا، ولا يضره الذنوب، ولا ينفعه الطاعات، وقد ألقاه الشيطان في قلب هذا المتمني، وأجراه على لسانه، لأن الشيطان يتربص بالعبد حتى إذا وجد غفلة منه عن ربه وأوامره دخل له من غفلته، قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة. معنى ذلك أنه لا يكل ولا يمل من البحث عن نقاط الضعف حتى يدخل منها إلى قلب الإنسان، وقد يتمكن الشيطان من الإنسان حتى ينسيه ذكر الله، قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[60].

لاَ تَقْبَلُوا قَوْلَ عَدُوِّ اللهِ بِالزُّورِ وَالْبَاطِلِ أَهْلَ اللهِ

إِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ أَخْبَرَنَا عَدَاوَةَ اللَّعِينِ حِينَ غَرَّنَا

تَرَى عَدُوَّ اللهِ مَاكِرًا بِنَا مَكْرَ عَدُوٍّ حَاذِقٍ وَمَا وَنَى

---

[59] - سورة الأنعام: 12.
[60] - سورة المجادلة: 19.

«لا تقبلوا»: أهل الله، «قول عدو الله»: هو إبليس اللعين،« بالزور والباطل»: بالأكاذيب والأماني الكاذبة التي لا وجود لها،« إن إله الخلق قد أخبرنا عداوة اللعين» و قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾[61]، وقال أيضا: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[62]، إن الله أخبرنا بعداوة إبليس حين خدع أبانا آدم حتى دفعه إلى عصيان ربه، وأخرجه من الجنة، وقال: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾[63]، «غرّنا»: أي خدعنا، لأن الشيطان لعنه الله يأمر بكل شر، ويحث عليه، وينهى عن كل خير، ويخوف منه، قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا﴾[64]، «ترى عدو الله ماكرا بنا مكر عدو حاذق»: أي وهذا العدو صاحب حيل ومكر، «حاذق»: أي ماهر وبارع في حيله وخبثه، «وما ونى»: أي لا يضعف في مكره، فالشيطان يزين للإنسان المعصية، فيزين له الاختلاء بالمرأة، ثم يزين له لمسها، ثم يزين له الزنا بها، يعني من معصية إلى معصية أكبر منها، أما ترى كيف فعل ببرصيص العابد، إنه كان في بني إسرائيل رجل متعبد في صومعته يقال له برصيص العابد، وكان مستجاب الدعوات، وكان الناس يأتونه بمَرْضَاهم ويبرئ المريض بدعائه، فدعا إبليس من الشياطين عليه لعنة الله فقال: من يفتن هذا ويضله؟ فقال عفريت من الشياطين: أنا أفتنه، فإن لم أفتنه فلست منكم، فقال إبليس: أنت له، فانطلق حتى أتى مَلِكًا من ملوك بني إسرائيل وله بنت من أحسن الناس وهي جالسة مع أبيها

---

61 - سورة فاطر: 6.
62 - سورة يس:59-60
63 - سورة الأعراف: 20-21
64 - سورة البقرة:268

وأمها وأخواتها فصرعها ففزعوا لذلك فزعا شديدا، فصارت البنت مجنونة، وكانت على ذلك أياما، ثم أتاهم على صورة إنسان فقال لهم: إن أردتم أن تبرأ فاذهبوا بها إلى فلان الراهب وهو يبرئها، ويدعو لها، فذهبوا بها إليه فبرئت من علتها، فلما رجعوا بها عاد ذلك، فقال لهم الشيطان: إن أردتم أن تبرأ بالكلية فاجعلوها عنده أياما، فانطلقوا بها إليه وتركوها عنده، فأبى الراهب فألحوا عليه وتركوها عنده، وكان الراهب مقيما للصلاة، مديما للصلاة، فأجلسها الراهب عنده فأطعمها حتى طال عليها الوقت فنظر إليها يوما فرأى وجهها وجسدها لم ير مثلها في الحسن، فمال قلبه إليها بوسوسة الشيطان، ولم يصبر ثم قربها فحملت منه، ثم أتاه الشيطان فقال له: إنك أحبلتها وليس لك نجاة من الملك مما صنعت بها إلا أن تقتلها وتدفنها عند صومعتك، فإذا سألوك عنها فقل: إنها ماتت فإنهم يصدقونك، فذبحها ودفنها فجاؤوا وسألوا عنها فقال: ماتت بأمر الله تعالى فصدقوه ورجعوا، فانطلق الشيطان فقال لهم: إن الراهب قد وقع عليها، فلما خشي أن يطلع عليها أحد ذبحها ودفنها، فركب الملك مع الناس مقبلا إلى نحو الراهب وحفر قبرها فوجدوها مذبوحة، فأخذوا الراهب وصلبوه، وجاء الشيطان وهو على مَصْلبه فقال: أنا أنجيك منها إن سجدت لي سجدة من دون الله تعالى، فقال: كيف أسجد لك وأنا في هذه الحالة، فقال: أرضى منك أن تومئ برأسك فسجد له إيماء برأسه فقال الشيطان: أنا بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، وهو قوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، وذلك جزاء الظالمين﴾[65].

[65] - سورة الحشر: 16 – 17.

لِـقَـوْلِـهِ اعْـمَـلْ فَـإِنَّ رَبَّـكَ يَـغْـفِـرُ يَـرْحَـمُ وَغَـيْـرُ ذَلِـكَ

يعني أن الشـيطان يقول للإنسـان: اعمل ما شـئت من المعصـية فإن الله كريم يغفر الـذنوب ويرحم ولا يعـذب أحـدا، أو يقول لـك: بقي من عمرك كذا، اغتنم من شبابك، فإذا جاءك الهرم ترجع إلى ربك، فإنه تواب رحيم، وغير هذه المتمنيات، قال تعالى محذرا عباده من تسـويف الشـيطان لهم: ﴿يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشـيطان إلا غرورا﴾[66]، وروى عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه قال قال رسـول الله ﷺ: {إن للشـيطان لمة – اللمة: جمع إلمام، وهو القرب بابن آدم – وللمَلك لمة: فأما لمة الشـيطان فإيعاد الشـر، وتكذيب الحق، وأما لمة الملك فإيعاد الخير، وتصـديق الحق، فمن وجد هذا فليعلم أنه من الله، فليحمد الله تعالى، ومن وجد العكس فليتعوذ من الشيطان الرجيم}[40].

يعني: فـإن لكل واحـد من الملك والشـيطان يقرب من الإنسـان لهـذين الأمرين، وهما الإيعاد بالخير والشـر بهما الإلهامان اللذان يقعان في القلب، أحدهما بواسـطة الملك، والآخر بواسـطة الشـيطان، وما وقع بواسـطة الملك يسمى إلهاما، وما وقع بواسـطة الشـيطان يسمى وسوسـة، والقلب متجاذب بينهما، لأنه بأصـل فطرته يصـلح لقبول آثار الملك وآثار الشـيطان صـلاحا متسـاويا، لا يترجح أحدهما على الآخرة، قال تعالى: ﴿ونفس وما سـواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسـاها﴾ هما النفس الامارة بالسوء و النفس اللوامة.

---

66 - سورة النساء: 120.

40- أخرجه الترمذي

هُـوَ الَّـذِي أَخْـرَجَ آدَمَ الـنَّـبِي مِـنْ جَـنَّـةِ الإِلَـهِ أَمْـرُهُ أَبِـي

وهذا العدو وهو الذي أخرج آدم أول نبي أرسل من جنة الله، قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا: اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾[67]، «وأمره»: أي كل ما يأمرك الشيطان، «أب»: من أبى يأبى إباءً، أي امتنع، ولا تطعه لأنه لا يأمر إلا بالمعصية، وقد حلف بأنه سيدخل بني آدم النار، وقال: ﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض، ولأغوينهم أجمعين﴾[68]، وقال: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا، قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا، واستفزز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾[69]، و غير هذه الآيات، واحذر الشيطان أيها الإنسان لأنه عدو، فلا تطعه فيما يأمرك.

كِـلُـوا أُمُـورَكُـمْ إِلَى بَـارِئِـكُـمْ لأَنَّـه خَـالِـقُـكُـمْ وَمُـنْشِـئُـكُـمْ

---

[67] - سورة البقرة:34-36

[68] - سورة الحجر: 39 – 40.

[69] - سورة الإسراء:62-64

«كلوا»: فعل أمر من وكل يَكل وكلا ووكولا، أي تسلّم واترك وفوّض الأمر إلى الله، واكتفى به، ويقال: كلني إلى كذا، أي دعني أقوم به، «أموركم»: أي جمع أمر، إلى «بارئكم»: اسم الفاعل من برئ، أي الخالق من العدم، «لأنه»: سبحانه وتعالى، و«خالقكم»: أي أوجدكم وأبدعكم من العدم، «منشئكم»: موجدكم، والمعنى: فوضوا أموركم إلى ربكم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ:{ من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله}[41]، يعني أن يفوض أموره إلى الله، ويرد الأمور إلى الفاعل المختار فإنه يفعل ما يشاء ويختار، وإذا أردت أن تكون من الأكابر فكن متذكّرا قول بعض أهل الإشارات.

تذكر جميلي عند كونك نطفة ولا تنس تصويري لشخصيك في الاحشاء

وسلم لي التدبير، واعلم بأنني أنفذ أحكامي وأفعل ما أشاء

وأمر الله سبحانه وتعالى بالتوكل عليه حيث قال: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[70]، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[71]، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا}[42].

وعرَّف العلماء التوكل: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب المنافع، ودفع المضار مع الأسباب التي أمر الله تعالى بها، فالتوكل على الله صفة علية من صفات عباد الرحمن، وشعار يتميزون به عند سواهم، وعلامة بارزة لأهل الإيمان كما قال عز وجل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر اللهُ وَجِلتْ قلوبُهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون﴾[72].

---

70 - سورة المائدة: 23.
71 - سورة إبراهيم:11
72 - سورة الأنفال:2

41_ في حلية الأولياء
42_ أخرجه الترمذي

مَتَى اشْتَغَلْتُمُ بِذِكْرِ رَبِّكُمْ يُعِنْكُمُ اللهُ عَلَى عَدُوِّكُمْ

« متى»: اسم شرط جازم، «اشتغلتم»: فعل الشرط، «بذكر ربكم»: أي إذا لزمتم ودمتم على ذكر الله، «يعنكم»: جواب الشرط، أي يساعدكم الله «على عدوكم»، أي الشيطان، لأن الشيطان لا يُغلب إلا بذكر الله، وهو يهرب من الذاكر، قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾[73]، وقال أيضا: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[74]، لأن كل شيء سوى ذكر الله تعالى وما يتعلق به يجوز أن يكون مجالا للشيطان، فأما ذكر الله تعالى فليس للشيطان مجال فيه. القلب كمثل حصن له أبواب كثيرة، والشيطان يريد أن يدخل فيه من باب، ويمتلكه ويستولي عليه، فلابد للعبد من حفظه، ولا يقدر على حفظه إلا بحراسة أبوابه، وسد مداخله، وأبوابه ومداخله الصفات المذمومة، فليس للآدمي صفة من الصفات المذمومة إلا وهي قوة من قوى الشيطان وسلاح من أسلحته، وباب من أبوابه، ولا يسدها إلا الذكر، إذن الذكر هو سلاح المؤمن وحصنه الحصين، الذي يتحصن به من الشيطان الرجيم، وترك الذكر يجعل الشيطان أن يشارك العبد في مأكله ومسكنه، فعن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :{ إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا لم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء}[43].

---

[73] - سورة الإسراء:65

[74] - سورة الحجر:42

[43]- أخرجه مسلم

إِلَهُنَا ضَمِنَ أَنْ يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُ دِينَهُ بِلاَ خُلْفٍ زُكِنْ

يعني أن الله استوجب على نفسه أن« ينصر من ينصر دينه، بلا خلف زكن»: أي بلا خلاف «زكن» أي علم، قال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين ءامنوا، إن الله لا يحب كل خوان كفور، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾[75]، وقال أيضا: ﴿ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾[76].

مَنِ اشْتَغَلْ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَهْ يُعَنْ بِلاَ شَكٍّ لِخَرْقِ الْعَادَهْ

«من اشتغل»: من اسم شرط جازم، يعني من اهتم بالذكر ودام عليه مع «العبادة»، «يعن»: جواب الشرط، أي يؤيد وينصر، «بلا شك لخرق العادة»: أي الخارج عن المعهود، وإذا صدر من نبي يسمى معجزة، ومن ولي يسمى كرامة، ومن عاص يسمى استدراجا، الذكر من أفضل القربات، وأوصل الوسائل، قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾[77]، أي فاذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة والثواب، وقد أمر الله المؤمنين بأن يذكروه ذكرا كثيرا، وأن يذكروه قياما وقعودا وعلى جنوبهم، وأخبر أن القلوب تطمئن بذكره، ويحصل به الفلاح العاجل والآجل، وأنه أعد للذاكرين الله كثيرا والذاكرات مغفرة وأجرا عظيما، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن ذكر الله غراس الجنة، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم:{ من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله}[44]. كما روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

[75] - سورة الحج:38-39
[76] - سورة الحج:40
[77] - سورة البقرة:152

[44]-الفتوحات الربانية في الإحياء ص1/391

وسلم: {لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك عني السلام، وأخبرهم أن الجنة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر}[45].

وذكر الله يُذل الشيطان، فقد عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم حماره فقال صحابي: تعس الشيطان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:{ لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب}[46].

وَلِلَّذِي يَذْكُرُ خَمْسَةُ عَشَرْ فَضِيلَةً وَكُلُّهَا اللهُ ذَكَرْ

أَعْنِي بِهِ الْمُسْتَغْرِقِينَ فِي الذِّكر بِشَرْطِهِ الْمَعْلُومِ دُونَ مَنْ ذَكَرْ

يعني: الذاكر له خمسة عشر فضيلة، وذكرها الله في كتابه العزيز في مواضع عديدة، ولكن ليس كل ذاكر يجد هذه الفضائل، بل خاصة بالمستغرقين في الذكر، أي البالغين فيه الدائمين على الذكر في جميع أحوالهم وأوقاتهم بشرطه المعلوم، أي بشروطه المعلومة في الكتب، منها: الجلوس مثل جلوسك في الصلاة كما في الرماح، والآداب المطلوبة من الذاكر حال الذكر: الجلوس على مكان طاهر متربعا، وكجلوسه في الصلاة، الثاني: أن يضع راحتيه على فخذيه، والثالث: تطييب مجلس الذكر والبدن والفم، وبُعد الرائحة الكريهة، لأن مجالس الذكر لا تخلو من الملائكة، وعن مؤمن الجن، والروحانيون لا يقبلون الروائح الكريهة، فبانقطاعهم عن مجلس الذكر

---

[45]- أخرجه الترمذي

[46]- رواه أحمد واسناده جيد

ينقطع المدد كما هو مشـــاهد بالذوق، والرابع: لبس اللباس الطيب، ومنها تغميض العينين لأنه أسـرع في تنوير قلبك، فبتغميض عينيك ينسـد عليك طرق الحواس الظاهرة، وانســداد الحواس الظاهرة ســبب لفتح حواس القلب، والخامس اســتقبال القبلة إلا لضــرر، وفي الخبر: إن لكل شــيء شـرفا، وإن شـرف المجالس ما استقبل به القبلة و من أراد التوسـع فليرجع الى الرماح و قوله «دون من ذكر»، يعني الذي يذكر باللســان فقط وبدون الشروط والآداب، وهذا لا ينتفع بذكره، ولا يصل إلى حضرة القدوس، فإن الذاكر لا يجد شـيئا من فوائد الذكر وثمراته المقصـودة إلا بحضـور القلب، وليحذر الذاكر من الغفلة في الذكر، فإن الغفلة يســبب ضــررا، يســلط عليه الشـيطان، واسـتولى عليه بسـبب غفلته عن ذكر مولاه كما قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾[78].

لأَنَّهَـا مَـقْـرُونَـةٌ بِـالـتَّـقْـوَى وَالـذِّكْرُ قُوتُ الْمُتَّقِي وَالمَأْوَى

«لأنها»: الضــمير يعود إلى كلمة الذكر، يعني الذكر ملازم بالتقوى الذي هو الاجتناب والامتثال، لأن كل ذاكر تقي، ومن علامات التقوى المداومة على الذكر في جميع الأوقات والأحوال، والذكر «قوت»، أي عيش ومأكل المتقي، «المأوى» أي مسـكنه، لأن المتقي يجد في الذكر الحلاوة والراحة والطمأنينة، ومن فضائل الذكر أنه يمكن عمله في كل وقت، وعلى كل حالة،

قال عليه الصلاة والسلام للرجل الذي قال له: يا رسول الله، قد كثت عليّ شرائع الاسلام، فمرني بشيء أتشبث به، فقال له:{ لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله}[47].

[78] - سورة الزخرف: 36

[47]- رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد

كَـذَا لأَنَّ الـذِّكْرَ جِـنْسُ الْـعَمَـل خُذْهَا بِتَرْتِيبٍ بَدِيعٍ وَجَل

لأن الأعمال كلها ترجع إلى الذكر، الذكر هو جنس العمل، والإسلام لا يقبل الإيمان بدون العمل، وكثيرا ما يقول الله تعالى:﴿ الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ﴾.

والذكر من الأعمال الصالحات، والذكر جماع لكل خير، لقد علّق الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز على التقوى من خيرات عظيمة، وسعادات جسيمة، و« خذها» ، أي خذ هذه الأجناس بترتيب بديع، أي جميل، وجل: أي ظاهر وواضح.

مَـعْـرِفَـةٌ هُـدًى وَعَـوْنٌ وَفَـلاَحْ مَحَبَّـةٌ تَقَبُّـلٌ لِـذِي الصَّـلاَحْ

ومن فضيلة التقوى أن من اتقى الله يعلمه الله العلم اللدني، قال تعالى:﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[79]، ولذلك قال معرفة ولم يقل علما لأن المعرفة هي التمكن من المشاهدة بشهود دائم بقلب هائم، فلا يشهد إلا مولاه، وكل عارف عالم، وليس كل عالم عارف.

ومن فضيلة التقوى: الهداية، قال تعالى: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[80]، الهداية هي تصويب العبد إلى الطريق توصله إلى الحق، ومن فضيلة التقوى العون، يعني أن الله يعين المتقين وينصرهم، ويكون معهم، قال تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[81]، أي أن الله

[79] - سورة البقرة: 282.
[80] - سورة البقرة: 1.
[81] - سورة البقرة: 194

معهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، ومن فضيلة التقوى الفلاح، هو ظفر وحصول محبة الله، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[82]، ومنها أن الله يقبل الأعمال الصالحات للمتقين وإصلاحها، وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم﴾[83].

وِلاَيَةٌ بُشْرَى نَجَاةُ النَّارِ دُخُولُ جَنَّةٍ مَعَ الأَبْرَارِ

ومن ذلك حصول الولاية، وعلامة الولي التي لا شك فيها أن يكون مكثرا من ذكر الله ويؤيده قول أبي علي الدقاق رضي الله عنه الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد أعطي منشور الولاية. ولي الله مع الله كولد اللبوة في حجرها أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله. عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: { من آذا لي وليا فقد آذنته بالحرب}[48] و في الحديث أيضا {انا جليس من ذكرني}[49] ومن كان الحق تعالى معه لا ينبغي لمن له دين أن يتعرض له بالأذى أو ينوي له سوءا في وقت من الأوقات. و قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[84]. ولا يكون الولي وليا إلا إذا كان موفقا لجميع ما يلزمه من الطاعات محفوظا بكل وجه عن جميع الزلات. وكل خصلة حميدة يمكن أن يعتبرها.

الولي هو من كان هَمُّه الله، وشغله وفناؤه دائما في الله، وتطلق على ثلاث مراتب: ولاية عامة وهي لأهل الإيمان والتقوى كما في الآية السابقة: ﴿الذين ءامنوا وكانوا يتقون﴾[85]، وولاية خاصة وهي لأهل الاستشراق على العلم

---

[82] - سورة آل إمران : 76
[83] - سورة الأحزاب: 70-71
[84] - سورة يونس: 62.
[85] - سورة يونس: 62.

[48]- رواه البخاري
[49]- رواه الديلمى

بالله، وولاية خاصة الخاصة وهي لأهل التمكن في معرفة الله على نعت العيان، وروى أنس بن مالك قال قيل لرسول الله ﷺ: من أولياء الله يا رسول الله؟ قال: {الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، وفي رواية: {الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها}[50]، ومن فضيلة التقوى : البشرى من الخير العاجل والآجل، قال تعالى: ﴿فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على ما أصابهم والمقيمين الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[86].

ومنها: النجاة من النار، قال تعالى:﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا، ثم ننجي الذين اتقوا، ونذر الظالمين فيها جثيا﴾[87].

ومنها: دخول الجنة والخلود فيها مع الأبرار، قال تعالى:﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا﴾[88].

لَـهُ مِنَ الْهُمُومِ مَخْرَجٌ حَسَـنْ وَالرِّزْقُ وَالتَّيْسِيرُ حَيْثُ لاَ يَظُنْ

يعني من فضيلة التقوى والذكر: وجود مخرج كل مشكلة وهموم وكرب، والرزق من حيث لا يحتسب، قال تعالى:﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[89]، ومن التيسير في الأمور، قال تعالى:﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾[90].

إِدَامَةُ الْغُفْرَانِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِعْظَامُ أَجْرِ لِيَنَالَ قَصْدَهُ

---

[50]- لم نقف عليه مسندا

[86] - سورة الحج:34-35
[87] - سورة مريم:71-72.
[88] - سورة مريم:63
[89] - سورة الطلاق:2
[90] - سورة الطلاق:4

ومنها غفران الذنوب، وسبب لحياة القلوب وتمييزها بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾[91]، وأما إعظام الأجر فقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرا﴾[92]، ومنها نيل المقصد والكرامة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[93]، ومنها البشارة بكل خير في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿الذين ءامنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[94]، لقد تبين لنا أن خير الدنيا والآخرة اجتمع تحت كلمة التقوى والذكر، ولذلك قال رضي الله عنه:

اشْتَغِلُوا بِاللهِ يَا إِخْوَان عَنْ كُلِّ غَيْرِهِ بِلاَ نُقْصَان

وقال رضي الله عنه: مادامت هذه الفضائل كلها موجودة في التقوى اشتغل بتقوى الله وطاعته يا أخي، واترك كل ما سواه تكن حرا من رق غير الله، إذ لو تعلق قبلك لخوف غير الله لكنت رقيقا للغير، وقوله: «بلا نقصان»، أي كل يوم يزيد تقواك ولا ينقص، لأن الخير كله في تقوى الله، ولذلك أوصانا الله سبحانه بالتقوى وقال:﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾[95]، فإن الله أعلم بصلاح عبيده من غيره، لأنه خالقهم، ولو كان في الدنيا خصلة أصلح للعبد وأجمع للخير من هذه الخصلة لأوصى بها.

---

[91] - سورة الأنفال: 29.
[92] - سورة الطلاق:5
[93] - سورة الحجرات:13
[94] - سورة يونس: 63-64
[95] - سورة النساء:131

وَاشْـــتَغِلُوا بِـالْعِلْمِ ثُمَّ الْعَمَـل لاَ نَـفْـعَ فِي عِـلْـمٍ بِـغَـيْرِ عَـمَـل

وطلب منا رضي الله عنه في هذا البيت أن نشتغل بطلب العلم، لأنه وسيلة لمعرفة الله، ولذلك أمر الله بتعلم العلم النافع قبل القول بالعمل حيث قال: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾[96]، وكذلك أن أول آية نزلت هي: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[97]، وبناء على ذلك يجب على كل مسلم ومسلمة معرفة ما لابد له من معرفته، ولا رخصة لأحد من المسلمين من تركه، وتعلم العلم على نوعين، النوع الأول: واجب على كل مسلم، لا يعذر أحد بتركه، وهو تعلم ما يستقيم به دينه لأحكام العقيدة والطهارة والصلاة... فتعلم هذه الأمور واجب على الأعيان، لا يعذر أحد بجهالته، والنوع الثاني: ما زاد على ذلك، علوم الطب والهندسة وغير ذلك فهذا واجب على الكفاية إذا قام به بعض من الناس يسقط الإثم عن الباقين، وإن تركه الكل أثموا، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة}[51]، وقال أيضا: {اطلبوا العلم ولو بالصين}[52]، فالجهل رأس الشرور والبلايا في الدنيا والآخرة، وإذا اجتمع على الجاهل أعداؤه ليضروه لم يقدروا أن يضروه بمثل ما قد ضرّ به نفسه، العلم خير من الدنيا وما فيها، ولذلك طلب النبي صلى الله عليه وسلم من ربه أن يزيده علما، وقال: ﴿وقل رب زدني علما﴾[98]، وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى

---

96 - سورة محمد:19

97 - سورة العلق: 1.

98 - سورة طه: 114

51- رواه ابن ماجه

52- أخرجه ابن عدى والبيهقي في المدخل وقال البيهقي متنه مشهور وأسانيده ضعيفة

الله عليه وسلم أنه كان يقول: {اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار}[53].

وقال رضي الله عنه: «لا نفع في علم بغير عمل»، إن العلم بلا عمل لا فائدة فيه، بل يضر صاحبه، ويعرّض نفسه لسخط الله، ويعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة طويلة فضل العلم، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: {تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ، وبَذله لأهله قربة، لأنه معالمُ الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزَّيْنُ عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة، تقتص آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يَبْلُغ العبدُ بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا ولآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل، يُلْهَمُه السعداء ويحرمه الأشقياء}[54].

وذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم بعض فضائل العلم، وعلينا أن نجتهد في طلب العلم والقدر الواجب من العلم على كل مسلم ليس بكثير، ولا يكاد يلحق الطالبُ له في طلبه مشقة لسهولته، لأن الله تعالى يعينه على ذلك،

---

[53]- أخرجه الترمذي

[54]- حديث موقوف وقيل إنه من كلام لقمان الراوي ابن القيم وقيل الراوي معاذ بن جبل

ويسّره له إذا صلحت نيته، وله في طلبه ثواب عظيم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ومن سلك طريقا يلتمس به علما يسر الله له به طريقا إلى الجنة}[55]، وقال أيضا: {إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنعه}[56]، ولكن العلم بلا عمل لا ينفع شيئا، وكما لا عذر لجاهل عند الله في ترك التعلم، وكذلك لا عذر لعالم في ترك العمل بعلمه، ومثل الجاهل المقصر في طلب العلم الواجب عليه كمثل عبد أرْسَل إليه سيدُه كتابا يأمره فيه بأشياء، وينهاها فيه عن أشياء فلم ينظر في ذلك الكتاب، ولم يعرف ما فيه أصلا مع القدرة على ذلك، والتمكن منه، ومثل العالم الذي لم يعمل بعلمه كمثل من نظر في كتاب سيده، وعلم ما فيه فلم يمتثل لشيء من أوامره، ولم يتجنب شيئا من نواهيه التي نُص عليها في كتابه.

ولكن العلم إنما يُتلقى ويُؤخذ عن العلماء الثقات، فالعلماء العدول هم ورثة الأنبياء، ويجب على طالب العلم أن يتعلم منهم، ويتقبل إرشاداتهم وتعليماتهم، ومع الأسف الشديد الناس في هذا الزمان يتعلمون على أيدي جهال لا يدركون من العلم شيئا، وهذا فيه خطورة عظيمة على الدين، وعلى المجتمع ومن الكلمات المأثوة عن الإمام محمد بن سيرين قال: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، وعن ابن أمية الجمحي رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال: {من أشراطها ثلاث: إحداهن التماس العلم عند الأصاغر}، وقال أبو صالح

[55]- رواه الترمذي

[56]- رواه أبو داود والترمذي

[57]- رواه الطبراني

سألت ابن المبارك: من الأصاغر قال أهل البدع وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لا يزال الناس مشتملين بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قِبل أصاغرهم، وتفرقت أهواؤهم هلكوا.

وأخطر من الأول من يقتصر على مطالعة الكتب، ويزعم أنه بذلك يستغني عن العلماء، وهذا خطأ عظيم، وضُرُّ ذلك أكثر من نفعه، ولنضرب لذلك مثلا: أنت إذا أحسست بمرض تذهب إلى الصيدلية وتأخذ الدواء منها، والواجب عليك أن تذهب إلى الطبيب ليعرف نوعية المرض، ويحدد لك الدواء المناسب، كل ذلك خشية أن تأخذ دواء ضارا غير مناسب يقضي عليك، أو يضرك، كذلك العلم لابد أن تذهب إلى المختصين فيه وتتلقاه عنهم، ولا تقتصر على الكتب خشية أن تقع في الضلالة، وفي الحديث: {إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا}[58].

لأَنَّ خَيْرَ النَّاسِ عَالِمٌ عَمِلْ بِعِلْمِهِ وَغَيْرُ هَذَا عَنْهُ مِلْ

«لأن خير الناس عالم عمل بعلمه»، إذ العالم الذي تعلم العلم، وعمل به، ونفع العباد بعلمه من خير عباد الله، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {خيركم من تعلم القرآن وعلمه}، وقوله رضي الله عنه: «وغير هذا عنه مل»، ومل فعل أمر من مال يميل

---

[58]- رواه البخاري

مرتبة تلي مرتبة النبوة، فإن العلماء العاملين هم الواسطة بين رسول الله وبين المسلمين، قال تعالى في فضل أهل العلم: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾[99]، فانظر كيف قرنهم بملائكته في الشهادة على توحيده وقيامه بالقسط وهو العدل.

إِنَّ الَّذِي عَلِمَ دُونَ الْعَمَلِ شَرُّ الْعِبَادِ اعْمَلْ وَلاَ تَعْتَزِل

إن العالم الذي لا يعمل بعلمه هو شر العباد، وقوله: «اعمل» أي اعمل بعلمك، ولا تعتزل، أي لا تتنح عنه، ولا تترك العمل بعلمك، والعالم الذي لا يعمل بعلمه مسلوب عن الفضائل المذكورة للعالم، فلا ينبغي أن يغتر بما ورد عن رسول الله ﷺ في فضل العلم، ولا يوهم نفسه أنه داخل في ذلك بمجرد العلم من غير عمل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {تعلموا ما شئتم، فو الله لا يقبل منكم حتى تعملوا به}[59]، وقال أيضا: {من ازداد علمه ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا}[60].

وقال الامام الشافعي

فساد كبير عالم متهتك وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين عظيمة لمن بهما في دينه يتمسك

وإنما صار العلم بتلك المنزلة الرفيعة لما فيه من المنفعة العامة لجميع عباد الله، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه في نفسه، فكيف ينتفع به غيره، وإذا كان

[99] - سورة آل عمران:18

[59]- أخرجه ابن عبد البر

[60]- في طبقات الشافعية الكبرى لم أجد له أسندا

العالم يُعلِّم علمه للناس وينفعهم به ولا ينتفع به كان بمنزلة الشمعة تضيء للناس، وهي تحترق، وكالإبرة تكسو الناس وهي عارية، قال تعالى:﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[100]، وفي الحديث: {إنه يؤمر بالعالم إلى النار فتخرج أمعاؤه فيدور بها في النار كما يدور الحمار بالرحى، فيطوف به أهل النار فيقولون له: ما بالك؟ فيقول: إني كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه}[61]، وهذا العالم أحسن حالا من الذي لا يعمل ولا يُعلم الناس.

دُمْ مُسْتَقِيمًا يَا أَخِي لِتَسْلَمَا إِيَّاكَ وَالْعِصْيَانَ كَيْ لاَ تَنْدَمَا

«دم»: فعل أمر من دام يدوم، مستقيما: اسم الفاعل من فعل استقام، أي ضد الاعوجاج، الاستقامة كلمة جامعة، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، وهي تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فهي من جوامع الكلم، ولهذا لما جاء سفيان بن عبد الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال له: {قل آمنت بالله ثم استقم}[62]. أي ثم استقم على طاعة الله وتوحيده وعبادته بأداء الواجبات المأمورات وترك المنهيات،

فالاستقامة هي: سلوك الصراط المستقيم من غير تعوج عنه يمنة ولا يسرة بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فلا يشد ولا يتساهل، إن الله سبحانه رسم للإنسان منهجا يسير عليه، وخُطة يلتزمها في سلوكه مع الله، ومع غيره ومتابعة هذا المنهج هو المعبر عنه بالاستقامة، وقد أشار الله سبحانه و تعالى إلى ذلك في قوله الكريم: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا

100 - سورة البقرة:44

61_ المحدث السيوطي

62_ أخرجه مسلم

السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[101]، أي أن على الناس أن يتبعوا هذا الطريق السوي، لأنهم إذا اتبعوه وساروا عليه أمنوا من الزيغ والضلال في الدنيا، وسعدوا برضوان الله ونعيمه في الآخرة، وإذا انحرفوا عن صراط الله، واتخذوا طرقا أخرى ابتدعوها من تلقاء أنفسهم تفرقوا عن سبيل الله، وحادوا عنه، واستحقوا الضلال، وتعرضوا للنكال بأعراضهم عن هداية الله، وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطّ خطّا مستقيما، وخط عن يمينه خطوطا، وعن شماله خطوطا، ثم قال مشيرا إلى الخط المستقيم: {هذا سبيل الله}، وقال مشيرا إلى الخطوط التي عن يمينه وشماله: {وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه}، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾ الآية.[63]

وأمرنا رضي الله عنه أن نكون مستقيمين دائما في جميع أحوالنا، لأن الاستقامة من شأنها أن ترقى بالإنسان، وتصل به إلى الذروة من الكمال، وتحفظ عقله وقلبه من أن يتطرق إليها الفساد، وتصون نفسه من التردي في حمأة الرذيلة، وإذا سيطرت الرغبة في الاستقامة على جماعة، وسادتْ بينهم حسنت أحوالهم، واستقامة أمورهم، وعمهم السلام، وإذا ضعفت الرغبة في الاستقامة ضعف الإقبال على الخير، وعظم التورط في الإثم، لهذا اهتم الشيخ رضي الله عنه بها اهتماما بالغا، وأولاها عناية خاصة، ودعا الإسلام إلى الاستقامة، وجعلها في أعلى المقامات حتى قال العلماء: إن الاستقامة هي عين الكرامة.

---

[101] - سورة الأنعام:153

[63]-أخرجه أحمد والنسائي في السنن الكبرى

وقوله: «وإياك والعصيان»، يحذرك عن المعصية، لأن آخرها الندم والخسران، لأن المعاصي لها عقوبات عاجلة وآجلة، ولها آثار سيئة على العباد والبلاد، فكم هلكت أمة بسبب المعاصي، وكم دمرت من بلاد، وما في الدنيا والآخرة من شرور وداء وبلاء إلا بسبب الذنوب والمعاصي، إن آثار الذنوب والمعاصي تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه وفي الهواء والثمار والمساكن، وفي الأبدان، قال تعالى:﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[102].

فمن تأثير المعاصي في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل والفيضانات والأعاصير المدمرة التي تجتاح الألوف من السكان، وتهلك المبالغ الطائلة من الأموال، وروى عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إذا اتخذ الفيء دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وتُعلم لغير الدين، وساد القبيلة فاسقُهم، وكان زعيمَ القوم أرْذلُهم وأكرم الرجل مخافة شره و ظهرت القينان و المعازف و شربت الخمور ولعن آخر هذه أمة أولها فارتقبوا عند ذلك زلزلة وخسفا ومسخا وردما وآيات تتتابع كنظام قطع سلكه متتابع}[64].

ومن أكبر وأعظم عقوبات المعاصي أنها تطفأ نور القلب، وتقتل الغيرة فيه، فتقوي فيه إرادة المعصية، وتضعف فيه إرادة التوبة شيئا فشيئا إلى أن تنعدم من قلبه بالكلية، وينعدم من قلبه الفرقان بين الحق والباطل، فيرى المعروف منكرا، وهذا من أعظم العقوبات.

كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوِ مُسْتَمِعًا أَوْ كُنْ مُحِبًّا لِذَوِي

---

[102] - سورة الروم: 41

[64]- قال أبو عيسى انه حديث غريب

مَـعْـرِفَـةٍ وَلاَ تَـكُـنْ خَـامِسَـــهُـمْ تَـرْبَـحْ أَخَـانَـا وتَـكُـنْ رَفِـيـقَـهُـمْ

وطلب منك رضـي الله عنه أن تكون عالما تلميحا لحديث النبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: {اغـد عـالمـا أو متعلمـا أو محبـا أو مسـتمعـا ولا تكن خامسـا}[65]، ولذلك أمرك رضـي الله عنه بما أمرك به النبي صـلى الله عليه وسـلم، كن أيها الأخ عالما لأن العالم العامل بما علم له فضـل كبير، قال تعالى:﴿ يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[(103)]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، من بين الدرجتين مسيرة خمسمائة، قال تعالى:﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[(104)].

وفي الأثر: {يستغفر للعالم ما في الأرض والسماوات}، وأيُّ منصب يزيد على منصـب تشـتغل ملائكة السـماوات والأرض بالاسـتغفار له فهو مشـغول بنفسه، وهم مشغولون بالاستغفار له، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صـلى الله عليه وسـلم: {أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسـل، وأما أهل الجهاد جاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل}[66]. عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ {من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضـع أجنحتها رضـا لطالب العلم وإن العالم ليسـتغفر له من في السـماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضـل العالم على العابد كفضـل القمر ليلة البدر على سـائر الكواكب وإن

[103] - سورة المجادلة: 11
[104] - سورة الزمر:9

[65]- أخرجه البيهقي
[66]- في كتاب يسير اعلام النبلاء واسناده ضعيف

العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.}[67]

وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : {يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء}[68]، فأعظم بمرتبة هي تلي النبوة، وفوق الشهادة، وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: {يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة، ثم يبعث العلماء، ثم يقول: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم}[69]، وغير ذلك من الأحاديث التي تدل على فضل العالم، وعلى الإنسان أن يجتهد في طلب العلم كي يكون من جملة العلماء، ولكن ليس كل من تعلم يصل إلى مرتبة العالم، لأن العلم نور يقذفه الله في قلب من شاء من عباده.

إذا كان الأمر كذلك طلب منك رضي الله عنه أن تنزل إلى المرتبة الثانية، وهي أن تكون متعلما، لأن طلب العلم له مرتبة عند الله، وطلب سبحانه وتعالى من عبده أن يتعلم مهما بلغ لأن نبي الله موسى عليه السلام طلب من الخضر عليه السلام أن يعلمه، قال له موسى: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾(105)، وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾(106)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة} و في روية { سهل الله له طريقا إلى الجنة} ، وقال أيضا: {إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع}، وروي عن أبي ذر الغفاري قال قال لي رسول الله ﷺ: {لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم

105 ـ سورة الكهف:66
106 ـ سورة النحل: 43

67ـ أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد
68ـ أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد
69ـ في إحياء العلوم أخرجه الطبراني، اسناده ضعيف

باب من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألفا ركعة}[70] وفيه: {من تعلم بابا من العلم ليُعَلِّم الناسَ أُعطي ثواب سبعين صديقا}[71]، وفيه أيضا: {طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد}[72]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {طلب العلم ساعة خير من قيام ليلة، وطلب العلم يوما خير من صيام ثلاثة أشهر}[73]، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله، وقال ابن عبد الحكم رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي فقال: يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية، وهناك أحاديث أخرى في فضل طلب العلم، وفي الذي ذكرته كفاية، ونسأل الله أن يقوينا في طلب العلم.

ولكن رغم هذه الفضائل فإن بعض الناس تمنعهم الشواغل عن طلب العلم، وإذا كان الأمر كذلك يطلب منك الشيخ الناصح أن تنزل إلى المرتبة الثالثة: هي أن تكون مستمعا لأهل العلم والصلاح، لأن الاستماع أسهل من التعلم، لأن الوسائل ميسرة في هذا العصر عصر التكنولوجيا كالأشرطة وآلات التسجيل المسوغة وكشبكة الإنترنت وغير ذلك، فالله يجازي المستمع كما يجزي العالم والمتعلم، وفي الحديث: {العلم خزائن ومفاتيحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمحب}.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة}، وقال ابن عطاء الله:

---

[70]- أخرجه ابن ماجه اسناده حسن وقد روي موقوفا عليه

[71]- أخرجه الديلمي اسناده ضعيف

[72]- أخرجه الديلمى

[73]- أخرجه الديلمى حديث موضوع

مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو، وقال بعضهم: إن استماع مسألة واحدة من العالم أفضل من سبعين حجة مبرورة، إذًا الاستماع وحضور مجلس العلم له فضل عظيم، وحتى ذلك ليس سهلا في هذا الزمان، لأن الناس يسارعون وراء المادة الفانية، وإذا لم تستطع أن تكون منهم كن محبا لهم تكن معهم، لأن المرء مع من أحب، وقيل من الأمور التي تزيد في الإيمان تعظيم العلماء جعلنا الله من الذين يعرفون قدرهم، وقيل لو علم العامة قدر العلماء عند الله عز وجل ما تركوهم يمشون على الأرض، ولتناوب أهل كل حومة العالمَ الذي فيهم وحملوه على أعناقهم، والله أعلم.

وروى صاحب البستان: إن لله مدينة تحت العرش من مسك أذفر على بابها مَلَكٌ ينادي كل يوم: ألا من زار عالما فقد زار أنبيائي، ألاَ من زار أنبيائي فقد زارني، ألا من زارني فله الجنة.

ولذلك طلب منك الشيخ الناصح أن تحب لذوي المعرفة تربح أي تفز يا أخي بصحبتهم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال{: من أكرم عالما فقد أكرم سبعين نبيا، ومن أكرم متعلما فقد أكرم سبعين عالما، ومن أحب العلم والعلماء لم تكتب عليه خطيئته}[74]، ويحذرك رضي الله عنه أن تكون خامسهم، أي مُعَادٍ للعلماء، ومبغضهم والعياذ بالله، وفي الحديث: {العالم سلطان الله في الأرض، فمن وقع فيه فقد هلك}[75]، وقيل: من أطلق لسانه في العلماء بالسب ابتلاه الله

[74]- في تخليص العلل المتناهية

75_ أخرجه الديلمى كما في الجامع الصغير للسيوطي

قبل موته بموت القلب، وعن أبي أمانة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ : {ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط}[76]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ يروى عن ربه: {من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب}[77]، أي أعلمته أني محارب له، وقيل: إن لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي، يعني العلماء العاملين، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: اطلبوا العلم، فإن عجزتم فأحبوا أهله، فإن لم تحبوهم لا تبغضوهم، وعن الإمام الشافعي رضي الله عنه: من لا يحب العلم لا خير فيه، فلا تكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة، فإن العلماء حياة القلوب، ومفتاح البصائر، اهـ

ورحم الله من قال:

ولحوم أهل العلم مسمومة ومن يعاديهم سريع العطب

ونسأل الله أن يجعلنا منهم، أو من المحبين لهم بجاه سيد المرسلين.

عَالِمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرِكُمْ أَمَرْ أَنْ تَفْعَلُوا الْخَيْرَ لِتُدْرِكُوا الْوَطَرْ

«عالم سركم» وجهركم هو الله سبحانه، لا يخفى عليه شيء، يعلم ما تبدون وما تخفون، «أمر» أي طلب من عباده طلبا جازما، «أن تفعلوا الخير»، أي أن تعملوا الخير «لتدركوا الوطر»: أي لتجدوا حاجتكم، «الوطر» جمعه أوطار، أي الحاجة والبغية، يقال: قضى منه وطره أي نال بغيته، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾[107]، وفلاح الإنسان متعلق بعمله الخير، الإسلام يحث على العمل الصالح بصفة عامة، وجعل سعادة الإنسان في

[107] - سورة الحج:77

[76]- أخرجه ابن زنجوية حكمه ضعيف

[77]- في صحيح البخاري

الآخرة موقوفة على العمل الصالح في الدنيا، ذكرا كان أو أنثى، قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[108].

إن العمل الصالح ثمرته تجنى في الدنيا عاجلا، وفي الآخرة آجلا، وإن المؤمنين الذين يعملون الصالحات هم الذين حصلت لهم السعادة التامة في العاجل كما تحصل لهم السعادة الكاملة في الآجل، يقول سبحانه: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾[109]، والرسول صلى الله عليه وسلم ما زال يحث أصحابه على فعل الخير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {افعلوا الخير دهرَكم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، وأن يؤمّن روعاتكم}[78]، وقال أيضا: {ألا أخبركم بخير الناس، وشر الناس؟ وقال: إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه، وعلى ظهر بعيره، أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا، يقرأ كتاب الله ولا يرعوي}[79]، أي لا يرجع إلى شيء منه.

نَسْأَلُهُ بِالْفَضْلِ أَنْ يَرْزُقَنَا دَوَامَ فِعْلِهِ كَمَا أَمَرَنَا

إن الله هو الذي يعين عباده على طاعته، لذلك قال رضي الله عنه: «نسأله» أي نطلب من الله العلي القدير، «بالفضل»: أي بفضله وكرمه، «أن يرزقنا دوام»، أي مداومة، «فعله»، أي فعل الخير، «كما أمرنا به»، لأن العمل لا يكون خيرا، ولا يكون مقبولا عند الله إلا إذا توفر فيه شرطان أساسيان،

---

[108] - سورة النحل: 98
[109] - سورة آل عمران: 142

[78]- أخرجه البيهقي والديلمى في الفردوس
[79]- في مشكاة المصابيح اسناده صحيح

الشرط الأول: أن يكون خالصا لوجه الله من كل شائبة شرك، والشرط الثاني: أن يكون وفق كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاليا من البدع، فالعمل الذي يخلو من هذين الشرطين أو أحدهما يكون وبالا على صاحبه، وتعبا بلا فائدة، فيجب على الإنسان أن يدوم على الأعمال الصالحات لأن خير الأعمال أدومها ولو قل، لأن مهلة الإنسان في هذه الدنيا قصيرة، ومدته محدودة، وأجله مقدر، والإنسان في هذه الدنيا معرض لعوارض تعوقه عن العمل، فيجب عليه أن ينتهز فرصة الإمكان قبل فواتها، قال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾(110)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {بادروا بالأعمال الصالحات، فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا}[80]، رواه مسلم، جعلنا الله من المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

ذِكْرُ الإِلَهِ مُنْتَهى الوِلاَيَةْ لأَنَّهُ الْمَبْدَأُ وَالنِّهَايَةْ

«ذكر الإله»: أي الذكر باللسان مع حضور القلب هو أشرف الطرق وأقصرها الموصلة إلى الله تعالى، وهو عنوان الولاية، «الولاية»: هي حصول الأنس بعد المكابدة، واعتناق الروح بعد المجاهدة، وحاصلها تحقيق الفناء في الذات بعد ذهاب حب الكائنات، قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه لرجل: أتحب أن تكون لله وليا؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرّغ نفسك لله عز وجل، اقبل بوجهك عليه يرفق عليك ويواليك، وقيل: الولي من كان همه الله، وشغله الله، وفناؤه دائما في الله، التقرب

110 - سورة البقرة: 148.

80- رواه مسلم

بالنوافل هو الذي يوصل العبد إلى هذه المرتبة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: {إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيته، وإن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته}[81]، وقوله: «منتهى الولاية»: أي المرتبة الأعلى، «لأنه» – أي الذكر – «المبدأ» أي بداية الولاية، والنهاية، يعني أن الولاية تطلق على ثلاث مراتب: ولاية عامة، وهي لأهل الإيمان والتقوى كما في الآية: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين ءامنوا وكانوا يتقون﴾، وولاية خاصة وهي: لأهل الاستشراق على العلم بالله، وولاية خاصة الخاصة وهي لأهل التمكن في معرفة على نعت العيان، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولياء الله؟ قال: {المتحابون في الله... الذين إذا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فما عرض لهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها، وخربت بيتهم فما يعمرونها، وماتت في صدورهم فما يحينها، بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون ما يبقى لهم، ونظروا إلى أهلها صرعى قد دخلت بهم المثلات فما يرون أمانا دون ما يرجون، ولا خوفا دونا ما يحذرونه}[82].

---

[81]- في صحيح البخاري

[82]- سبق تخريجه

وقوله رضي الله عنه: المبدأ والنهاية، يتبين لنا أن الأولياء يتفاوتون في المراتب، عن ابن مسعود رضي الله عنه: إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل، وإذا مات الواحد أبدل الله مكانه واحدا من الثلاثة، وإذا مات واحد من الثلاثة أبدل الله مكانه واحدا من الخمسة، وإذا مات واحد من الخمسة أبدل الله مكانه واحدا من السبعة، وإذا مات واحد من السبعة أبدل الله مكانه واحدا من الأربعين، وإذا مات واحد من الأربعين أبدل الله مكانه واحد من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه واحدا من العامة... إلخ، وأعلاهم مرتبة هو الغوث والقطب كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يكون في هذه الأمة أربعة على خلق إبراهيم، وسبعة على خلق موسى، وثلاثة على خلق عيسى، وواحد على خلق محمد صلى الله عليه وسلم وهو القطب، وهو القائم بحق الكون، ويصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء، والأولياء لا يعرفهم إلا مثلهم، وفي الحديث القدسي: أوليائي تحت فنائي، لا يعرفهم سواي، ونسأ الله أن يجعلنا منهم.

كُونُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مُقْبِلِينَ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ مُدْبِرِينَ

وطلب منا رضي الله عنه أن نكون دائما متوجهين إلى الله ومقبلين إليه، و«عن كل ما سواه»، أي ما سوى الله، «مدبرين»، أي ننسى الأغيار، وهذا هو مقام مراقبة الله تعالى، فمعناها استشعار قرب الله من البد على

الدوام، وإحاطته ومعيته له، واطلاعه عليه، ونظره إليه، قال تعالى:﴿ وكان الله على كل شيء رقيبا﴾[111]، وقال أيضا:﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[112]، وقال:﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[113]، وقال أيضا:﴿ وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير﴾[114].

فالمراقبة من مقام الإحسان، ومن تحقق بها أثمرت له الخشية لله تعالى، فمراقبة أهل الظاهر: حفظ الجوارح من الهفوات، ومراقبة أهل الباطن: حفظ القلوب من الاسترسال مع الخواطر والغفلات.

رَءُوفٌ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ غَافِرُ قَوِّ قُلُوبَنَا فَأَنْتَ النَّاصِرُ

«رءوف» اسم من أسماء الله تعالى، وفعله رَأف يرأف رأفة ورؤفا، أي رحمه أشد رحمة، «رحمن» اسم من أسماء الله تعالى مشتق من الرحمة، دال على كثرتها، الرحمن أعم من الرحيم، و«الرحيم» معناه ذو الرحمة بعباده الخاصة، «غافر» اسم من أسماء الله تعالى، من غفر يغفر غفرانا، أي أغطى عليه وعفا عنه وستره، «قو»: فعل أمر من قوي يقوى قوة، ضد الضعف، يعني طلب من الله تعالى أن يقوي قلوبنا على طاعته، «فأنت الناصر»، أي المعين، الله هو المعين على الطاعة لا غيره.

أَنْتَ الَّذِي تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ الَّذِي تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

---

[111] - سورة الأحزاب: 33.
[112] - سورة طه: 46.
[113] - سورة ق: 16.
[114] - سورة الحديد: 4.

يعني أن الله يتصرف في ملكه وحده، يؤتي العزة من يشاء، ويذل من يشاء، يعز الذليل متى شـــاء، ويذل العزيز متى شـــاء، لا بيد غيره، وهو يفعل ما يشـاء، قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشـاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير﴾[115].

لَـوْ كُنْـتَ تَعْلَمُ الَّـذِي فِي النَّـارِ مِـنْ حَـيَّـةٍ وَعَـقْـرَبٍ وَغَـارِ

لَـكُـنْـتَ هَـارِبًـا مِـنَ الـذُّنُـوبِ لِـفِـعْـلِ طَـاعَـةٍ بِـلاَ عُـيُـوبِ

يعني أيها الأخ لو كنت تعلم ما في النار من عذاب شـديد، من حية وعقرب، وفي الحديث: {إن في جهنم سبعين ألف واد، في كل واد سبعون ألف شعب، في كل شـعب سـبعون ألف دار، في كل دار سـبعون ألف بيت، في كل بيت ســبعون ألف بئر، في كل بئر ســبعون ألف ثعبان، في شـــدق كل ثعبان سبعون عقرب، لا ينتهي الكافر أو المنافق فيها حتى تواقع ذلك كله عليه}[83]، قد روى أحمد عن الحرث بن جزء الزبيدي قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: {إن في النار حيات كأمثال أعناق بخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها ســبعين خريفا، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تسلع احداهن اللسعة فيجد حمومتها أربعين سنة}[84].

«وغار»: معطوف على الحية، «الغار» كهف، جمعه أغوار وغيران، ولذلك قال رضـي الله عنه: لو كان في عملكم هذه الأشـياء لهربتم من الذنوب، وتوجهتم إلى طاعة الله تعالى طاعة خالصة لوجهه بلا عيوب ولا رياء.

---

[115] - سورة آل عمران: 26

[83]- في الترهيب والترغيب

[84]- حديث حسن رواه أحمد والبيهقي في البعث والنشور

هِـدَايَـةُ الـرَّحْـمَـنِ وَالـرِّضْـــوَانُ أَفْضَـــلُ مَـا يَطْلُبُـهُ الإِنْسَـــانُ

وقال رضـــي الله عنه: عليك أيها الأخ أن تطلب من الله الهداية، «الهداية»: هي تصـــويب العبد إلى طريق توصـــله إلى الحق، والهداية أفضـــل ما يطلبه الإنســـان، ولـذلـك علمهم الله في الفـاتحـة أن يســـألوه أن يـديم هـدايتهم للإسلام حتى لا ينقطعوا عنه.

الهداية نوعان: هداية بيان وإرشـــاد، وهداية بيان تطلب من ذوي العلم، فهو يبينون للسائل طرق الخير، ويرشدونه إليها، النوع الثاني: هداية توفيق إلى اعتقاد الحق ولزومه، وهذه لا تطلب إلا من الله تعالى، وعلى الإنســـان أيضا أن يطلب رضوان الله، والرضوان يوجد بسبب خشية الله، قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾[116]، وقال أيضا: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومســـاكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم﴾[117].

وَاجْتَهِـدُوا لاَ تُلْـهِـكُـمْ أَمْـوَالُـكُـمْ عَـنِ الْـعِـبَـادَةِ وَذِكْـرِ رَبِّـكُـمْ

«واجتهـدوا» من جهـد في الأمر وجَـدّ فيـه لأن الإنســـان دائمـا في جهـاد مع نفســـه، فإن العبد ما لم يجاهد نفســـه لا يمكنه جهاد العدو الخارجي مع ترك العدو الداخلي، وجهاد النفس هو إلزامها بفعل ما أمرت به، وترك ما نهيت عنه، ولهذا قال صـلى الله عليه وسـلم: {الجاهد من جاهد نفســه في طاعة الله، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه}[85]، فمن لم يســلم من شـــر نفسه لم يصل إلى الله تعالى، لأنها تحول بينه وبين الوصول إليه: «لا تلهكم

---

[116] - سورة البينة: 22

[117] - سورة التوبة: 72

[85]- صححه الألباني وابن حجر العسقلاني

أموالكم»، أي لا يشـــغلكم أموالكم، لأن المال فتنة، قال تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[118]، فمن الناس من كان المال أكبر همه، وشـــغل قلبه إن قام، فهو يفكر فيه، وإن قعد فهو يفكر فيه، وحتى في العبادة فهو يفكر في ماله، ويشـــغله عن العبادة، وذكر ربكم أيها الإخوة فاشتغلوا بما يبقى عما يفنى.

مِـــنَ الإِلَـــهِ نِـــعْـــمَـــةُ الأَوْلاَدِ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ عَنْ هَـادِي

تقديم الجار والمجرور تفيد الحصـــر، يعني أن نعمة الأولاد والأموال من الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاك ذلك لا غيره، النعمة تنقسم إلى قسمين: نعمة ظاهرة كالصحة والعافية والكفاية من الحلال، ونعمة باطنة كالإيمان والهداية والمعرفة، والناس في النعمة الظاهرة على قســـمين: قوم فرحوا بالنعمة لما لهم فيها من المتعة فحجبوا بها عن المنعم، وقوم فرحوا بالمنعم دون ســـواه، ومن أعطي نعمة يجب عليه أن يشـــكر المعطي، والشـــكر استعمال النعمة في طاعة الله، وذلك غاية الشكر ونهايته، قال تعالى: ﴿كلوا من رزق ربكم واشـكروا له﴾[119]، وقال رســول الله صـلى الله عليه وسـلم: {من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فاستغفر، أولئك لهم الأمن، وهم مهتدون}[86].

الأبناء والأموال أمانة وضـــعها الله بين يدي الآباء، وهم مســـؤولون عنها، وكذلك الأموال وضـــعها الله في أيدي الأغنياء، فهم مســـؤولون عنها، فإن أحســـنوا إليهم كانت لهم المثوبة، وإن أســـاءوا عوقبوا، «لا تلهكم»: أي لا

---

[118] - سورة الانفال: 28

[119] - سورة سبأ: 15

[86]- رواه ابن حبان

يشـــغلكم الأموال والأولاد عن عبادة هادي: هو الله تعالى، الذي يهدي من يشاء من عباده هداية توفيق إلى صراط مستقيم.

نَـوَالُـهُ اقْـتَضَـى دَوَامَ ذِكْـرِهِ لأَنَّـهُ الْـوَهَّـابُ دُونَ غَـيْـرِهِ

«نواله»: مصدر نال، أي اعطاه إياهما، أي المال والأولاد، «اقتضى»: يطلب من نائل مداومة ذكر الله تعالى وشكره، «لأنه» أي الله سبحانه «الوهاب»، أي المعطي، والواهب لا غيره لأنه سبحانه وتعالى منع ذلك بعضا وأعطاك أنت، هل تظن أنك أفضل ممن مُنعوا الأولاد والأموال، عليك بدوام ذكر الله وشكره، والشكر هو معرفة العبد بأن جميع ما به من النعم، وما عليه منها في ظاهره وباطنه من الله تعالى، تفضلا منه سبحانه، وامتنانا لا استحقاقا، قال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[120]، وقال عليه الصلاة والسلام: {لو أعطي رجل من أمتي الدنيا بأسرها ثم قال الحمد لله كان قوله الحمد لله أفضل من ذلك كله}[87].

يَـدُومُ ذُو الْـعَـقْـلِ مِـنَ الْـعِـبَـادِ عَـلَـى الْـعِـبَـادَةِ بِـلاَ عِـنَـادِ

يعني أن العاقل من عباد الله هو الذي يدوم على العبادة، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[121]، أي دوموا على طاعة الله في جميع الأوقات،« بلا عناد»: من عند يعند عنادا وعنودا، والعنيد هو الذي خالف الحق، فهو عارف به، العقل: وهو نور يُميَّز به بين النافع والضار، ويحجز صاحبه عن ارتكاب الأوزار، سمي العقل عقلا لأنه يعقل، أي يقيد صاحبه عما لا ينبغي، والعقل على قسمين: عقل

---

120 - سورة إبراهيم: 7.

121 - سورة آل عمران: 102

87- رواه الهيثمى من حديث أمامة رضي الله عنه

أكبر، وعقل أصـــغر، ومن نور العقل الأكبر يمتد العقل الأصـــغر كامتداد القمر من نور الشمس، فلا يزال نور العقل الأصغر ينمو بالطاعة والرياضة والتطهير من الهوى حتى يدخل العبد مقام الإحسـان، وتشـرق عليه شـمس العرفـان فينطفئ نوره في نور العقـل الأكبر كانطفـاء نور القمر عنـد طلوع الشـمس، فيرى من الأسـرار والغيوب ما لم يكن يراه قبل، وفي الأخبار: أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل، أقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال له: وعزتي وجلالي لا أجعلك إلا فيمن أحببت من عبادي، فالعقل الأكبر لا يناله إلا المحبوبون الـذين اختـارهم الله لمعرفتـه الخـاص، وأمـا العقـل الأصـــغر فيعطيه للخاص والعام.

فَـكُـلُّ مَـنْ شُـــغِـلَ بِـالأَوْلاَدِ وَكَـثْـرَةِ الْمَـالِ عَـلَى الـتَّـمَـادِي

عَـنْ ذِكْـرِ رَبِّـهِ فَـذُو خُسْـــرَانِ لأَنَّـهُ خَـالَـفَ ذَا الـنِّـيـرَانِ

يعني أن «من اشـتغل بالأولاد وكثرة المال على التمادي»، أي على الاسـتمرار في تحصـيلها حتى شـغله «عن ذكر ربه» فقد خسـر خسـرانا مبينا، «لأنه خالف» أي عارض، ذا النيران أي أمر صـاحب النيران، هو الله الذي خلق كل شيء بقدرته، النيران جمع نار، وخلقت جزاء للكافرين، لأن المال يحمل على التكبر والطغيـان، قـال تعـالى:﴿ كلا إن الإنســـان ليطغى أن رآه استغنى﴾[122].

لاَ خَـيْـرَ فِي مَـالٍ وَلاَ وِلْـدَانِ إِنْ كَـانَ مُشْـغِلاً عَنِ الـدَّيَّـانِ

[122] - سورة العلق: 6.

يعني لا خير ولا بركة في المال والأولاد اللذين يشغلان صاحبهما عن عباد الله الديان، الديان صيغة المبالغة، أي الذي يقضي بين العباد يوم القيامة، كل بعمله، وهذا لا يعني ليس في المال محاسن، واسمعوا هذا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أهل الدثور – أي الأموال الكثيرة – بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: {وما ذاك؟} فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟} قالوا: بلى يا رسول الله، قال: {تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة}، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء}[88]، فهذا دليل على أن من أعطاه الله الغنى والعمل الصالح فقد تفضل عليه.

وَذَوُوا الْعُقُولِ مَا أَرَادُوا غَيْرَ مَا يُعِينُهُمْ خِلاَفَ مَنْ تَقَدَّمَا

والعاقل لا يريد من ماله غير ما يعينه ويقويه على عبادة الله وطاعته، المال وسيلة لطاعة الله، وفعل الخيرات، كالإنفاق وعمارة المساجد والمدارس الخيرية، والمال يجري منفعته على صاحبه بعد موته كلما انتفع به وارث،

[88]- متفق عليه

أو حبس منه وقفا على جهة بر، قال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: {إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس}[89]، وقال أيضا: {إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له}[90]، «خلاف من تقدم»، أي من تقدم ذكرهم الذين لا يبالون من أين أخذوا المال، فالحلال عندهم ما تمكن من أخذه بأي وسيلة من وسائل الحيل والكذب والخداع، وفي الحديث: {كل لحم نبت من السحت فالنار أولى به}[91].

إِنَّ الَّذِي أَمَرَنَا بِالذِّكْرِ أَمَرَ بِالإِكْثَارِ دُونَ الْجَهْرِ

لِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ اذْكُرُوا وَالذَّاكِرِينَ وَالَّذِينَ يَذْكُرُوا

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالذكر، وأمرنا أيضا بالإكثار من الذكر دون الجهر في بعض المواضع، قال تعالى:﴿ يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[123]، وقال أيضا:﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾[124]، وقال أيضا:﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول﴾[125]، وعلق الله سبحانه الفلاح باستدامته، والإكثار منه، قال تعالى:﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾[126].

إن ذكر الله أكبر من كل شيء، قال تعالى:﴿ ولذكر الله أكبر﴾[127]، فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود كلها إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها،

---

123 - سورة الأحزاب: 41.
124 - سورة الأحزاب: 35.
125 - سورة الأعراف: 209.
126 - سورة الأنفال: 45.
127 - سورة العنكبوت: 42.

89- حديث متفق عليه
90- رواه مسلم
91- رواه الإمام أحمد في مسنده

ويكفي في شـرف الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهل الذكر، روى مسـلم عن معاوية رضي الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم خرج على حلقة من أصحابه فقال:{ ما أجلسـكم؟} قالوا: جلسـنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسـلام، ومنّ به علينا، قال: {آلله ما أجلسـكم إلا ذلك؟} قالوا: آلله ما أجلسـنا إلا ذلك، قال: {أما أني لم أسـتحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة}[92].

والـذكر من أسـهل العبادات، إذ يمكن المداومة عليه في جميع الأوقات والأحوال، لأنه غير مؤقت بوقت، بل هو مأمور به على الدوام، قال تعالى: ﴿الـذين يـذكرون الله قيـامـا وقعودا﴾[128]، ويمكن القيـام لـه المحـدث والجنب، والمشـغول والفارغ، وقوله: دون الجهر، أن تخفي الـذكر بحيث تسـمع نفسـك، قال عليه الصلاة والسلام: {خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي}[93]، وقال الحاج عمر الفوتي في الرماح ما معناه أن الجهر بالذكر للعوام غير الواصـلين، وكذلك إذا كانوا مجتمعين على الـذكر كحضـرة الجمعة، والأولى في حقهم رفع الصـوت بالذكر، وأما إذا كان الذاكر وحده فإن كان من الخواص الواصـلين فالأولى في حقه الإخفاء، وإن كنت من العوام وجهرت بالذكر مع الإخلاص لله فيه بشرط الا يشوش بسبب ذلك على مصل ولا قارئ بحيث لا تختلط عليه صلاته وقراءته، ولا بأس بالجهر، بل هو مسـتحب ومحبوب، لأن القلوب كالحجارة، ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر فيخرج منه الأنهار، وإن منها لما يشـقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشـية الله﴾.. وعن جابر رضي الله عنه أن رجلا كان يرفع صـوته بالـذكر فقال رجل: لو أن هذا خفض من صـوته، فقال صـلى الله عليه

---

[128] - سورة آل عمران: 191.

[92]- في صحيح مسلم

[93]- رواه أبو يعلى وصححه ابن حبان

وسلم: {دعه فإنه أواه}[94]، والأواه رقيق القلب، وقد ورد بفضل جهر الذكر الخبار، قال عليه الصلاة والسلام: {ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يذكرون الله تعالى يريدون بذلك وجه الله تعالى إلا غفر لهم، وبدل سيئاتهم حسنات}[95].

كَذَلِكَ الرَّسُولُ قَدْ رَغَّبَنَا إِلَيْهِ فَاذْكُرْ يَا خَلِيلِي رَبَّنَا

يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رغّب العباد في الذكر، فاذكر ربنا يا خليلي، أي صديقي، فقد أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فدلني على شيء أتمسك به، قال: {لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله}[96].

وقال بعض السلف: علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئا إلا أكثرت من ذكره، وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله على كل أحيانه، يعني في حال قيامه ومشيه وقعوده ورقوده، وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو قال: ثم دعا استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته}[97]، وقال أيضا: {ما عمل ابن آدم عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله}[98]، ويستحب ذكر الله بعد الصلاتين اللتين ينهى عن التطوع بالصلاة بعدهما، وهما الفجر والعصر،

---

[94]- حديث مرفوع عن ابن جريج المصدر اتحاف الخيرة المهرة

[95]- في صحيح مسلم عن ابن سعيد وأبي هريرة

[96]- في سنن الترمذي

[97]- في صحيح البخاري

[98]-أخرجه العراقي وابن أبي شيبه والطبراني واسناده حسن

فشرع الذكر بعد صلاة الفجر إلى أن تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب، وقد أمر الله بذكره في هذين الوقتين في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[129]، وقال أيضا: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾[130]، وقال أيضا: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾[131].

فَالْعِزُّ وَالإِكْرَامُ وَالرِّضْوَانُ وَالرِّبْحُ فِي الطَّاعَةِ يَا نَوْمَانُ

إِنَّ الْخَسَارَةَ مَعَ النُّقْصَانِ وَالْفَقْرَ وَالْهَوَانَ فِي الْعِصْيَانِ

يعني أن العزة الدائمة، والكرامة عند الله في الدنيا والآخرة، والربح في الدنيا والآخرة هو طاعة الله ورسوله، وكذلك حصول رضوان الله، قال تعالى:﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم﴾[132]، وقال أيضا:﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنهم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾[133].

الطاعة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وهي بهذا التعريف تشمل كل ما يصدر من العبد من الأعمال القلبية والبدنية والمالية المشروعة، حتى العادات تتحول إلى عبادات إذا قارنتها نية صالحة، فالنوم مثلا إذا قصد به التقوّي على الصيام أو على قيام الليل يكون عبادة، واتصال الرجل بأهله إذا قصد به التعفف عن

---

[129] - سورة الأحزاب: 42.
[130] - سورة الإنسان: 25.
[131] - سورة ق: 39.
[132] - سورة النساء: 13.
[133] - سورة النساء: 69.

الحرام يكون عبادة، إن عبادة الله هي أول الواجبات، وهي حق الله عليه، المقدم على سائر الحقوق، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[134]، والدليل على ذلك حديث معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟} قلت: الله ورسوله أعلم، قال: {فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا}[99]، إذن العزة والكرامة في طاعة الله، لا في كثرة الأولاد كما يظن البعض، كما أن الخسارة والنقصان والفقر والهوان في العصيان، والمعاصي هي سبب لكل العقوبات المنزلة، قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾، وعقوبات الآخرة سببها المعصية، قال تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها، وله عذاب مهين﴾[135]، ما الذي أغرق قوم نوح بالطوفان، وأغرق فرعون وجنوده في البحر، وما الذي سلط الريح العقيم على عاد؟ أليست هي الذنوب والمعاصي، قال تعالى:﴿ فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[136].

والذنوب والمعاصي تتفاوت تنقسم إلى كبائر وصغائر، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من المعاصي عموما، وحذر من الكبائر خصوصا، لأن خطرها أشد، ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الإشراك بالله، وعقوق

134 - سورة الذاريات: 56
135 - سورة النساء: 12
136 - سورة العنكبوت: 40

99- متفق عليه

الوالدين، وشهادة الزور}[100]، وفي الصحيح أيضا عنه صلى الله عليه وسلم: {اجتنبوا السبع الموبقات}، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: {الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات}[101].

وَرَبِّنَا مَا حَصَلَ الْيَقِينُ لِذِي التَّكَاثُرِ كَمَا يَبِينُ

الواو واو القسم، يعني أن من كان همه حصول المال الكثير لا غير لن يحصل اليقين، واليقين هو سكون القلب إلى الله بعلم لا يتغير ولا يتحول ولا يتقلب، ولا يزول عند هيجان الحركات، أو ارتفاع الريب في مشاهدة الغيب، وهناك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

علم اليقين: ما كان ناشئا عن البرهان، وعين اليقين ما نشأ عن الكشف، وحق اليقين ما نشأ عن الشهود والعيان، فالمال يحمل صاحبه على التكبر والطغيان، قال تعالى:﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾، فالإنسان إذا رأى أنه قد استغنى وكثر ماله فرح وطغى، والمال غالبا يجرُّ إلى المعاصي، لأن من قَدَرَ على تحصيل شهواته المحرمة انبعثت نفسه إليها، والمال يحرك إلى كثرة التنعم بالمباحات حتى تصير له عادة وألفا، فلا يصبر عنها فيغرق في الترف، والترف مذموم غاية في مواضع كثيرة من القرآن.

فالمترفون هم أعداء الرسل، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾(137)، والمال يحمل صاحبه على المداهنة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد، ولا يجد وقتا كافيا في عبادة ربه، وعلى الإنسان

137 - سورة سبأ: 34.

100_متفق عليه عن أنس بن مالك
101_متفق عليه عن أبي هريرة

أن يطلب ما يكفيه ولا يطغيه، وفي الحديث: {من جمع مالا من حله، وأدى فيه حق ربه، تعطفا على الفقراء، وتعففا عن المسألة، ونفقة على العيال، يكرم الضيف، ويعطي في نوائب الحق جاء يوم القيامة وكأنه نبي مرسل، أو ملك مقرب، يراه أهل المحشر غبطة بحاله، وأما من جمعه من غير حلّه مكاثرا مفاخرا متطاولا متخوضا في مال الله بغير حق جاء يوم القيامة وعلى وجهه قترة الغضب، ولقي الله وهو عليه غضبان، وأما من لم يبال من أي وجه جمعه فإن الله لا يبالي في أي واد من أودية النار أوبقه، فإن تصدق منها صار زاده إلى النار، وإن أمسكه كان زيادة له في الإثم}[102]، فبان من هذا أن المال لا يذم على الإطلاق، ولا يمدح على الإطلاق، بل يحمد ويذم بحسب ما استعمل فيه.

لاَ يَجْمَعُ الْحَلاَلَ وَالْحَرَامَا إِلاَّ غَبِيٌّ حَوْزَهَا قَدْ رَامَا

يعني أن كسب الحلال مطلوب لكل مسلم، ولا يطلب الحرام إلا إنسان غبي، أي جاهل، حوزها أي حصول الأموال الحرام، قد راما، الألف للإطلاق لأجل الروي، «رام» أي طلب حصول المال الحرام لجهله ما وراء الحياة الدنيا، قال صلى الله عليه وسلم: {أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إن بما تعملون عليم﴾}[103]، ولذلك اتق الله في طلبه، واتق الله في إنفاقه، إن الشيطان قد يلعب بأفكار كثير من الناس فيجرّؤهم على أخذ المال من وجوه محرمة، وطرق خبيثة، فأخذوا الرشوة

[102]-لم أجد له سندا

[103]-في صحيح مسلم عن أبي هريرة

في وظائفهم، وخانوا أمانتهم بشتى الوسائل، وغشوا في بيعهم وشرائهم، وكذبوا في معاملتهم، فمن الناس من كان المال أكبر همه، إن قام فهو يفكر فيه، وإن قعد فهو يفكر فيه، وإن نام كانت أحلامه فيه، فالمال ملئ قلبه، وحتى في العبادة فهو يفكر في ماله كأنما خلق للمال وحده، أيها المسلم عليك أن تعلم أنك مسؤول عن مالك، قليله وكثيره في موقف لا ينفع فيه إلا الصدق، تسأل من أين اكتسبته، وفيم أنفقته؟ فما جوابك حينذاك؟ وما عاقبتك بعد هذا الجواب؟ اقنع بالكسب الحلال، ففيه الخير والبركة، والزم الصدق ففيه النجاة، ولا تغتر بالذين ورّطوا أنفسهم في المعاملات المحرمة، ومنعوا الحقوق الواجبة.

ولا تظنَّ أنك حصَّلت هذا المال بحولك وقوتك، وإنما هو فضل من الله أسداه إليك، وعارية بيدك، سينتقل إلى غيرك، وليس لك منه إلا ما قدمت لآخرتك، فاتق الله فيه، وفي الحديث: {إنه قد نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم}[104].

إِنَّ الَّذِي نَهى عَنِ التَّكَاثُرِ لَهُ عَذَابٌ دَائِمٌ لِلْخَاسِرِ

يعني بالذي نهى عن التكاثر هو الله تعالى في قوله: ﴿ألهاكم التكاثر﴾، أي اشتغلتم بتكاثر الأموال عن طاعة الله تعالى، ولم تقدموا لآخرتكم شيئا حتى زرتم المقابر، والمعنى أن من كان همه جمع المال، والتباهي بكثرته حتى مات،

[104]-حسن صحيح عن حذيفة بن اليمان وروي عن أبي أمامة الباهلى المصدر صحيح الجامع وصححه الباني

ونقل إلى المقابر، ولم يتزود للدار الآخرة فهو خاسرو الرب سبحانه و تعالى له عذاب أليم للذين خسروا في الدنيا والآخرة، وهذا لا يعني عدم طلب الرزق الحلال، وإنفاقه في الحلال، في الحديث: {من جمع ماله من حِلِّه، وصرفه في محله جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر}[105]، المال كالآلة، فهي لما استعملت فيه، فإن استعملته في طلب مرضاة الله والدار الآخرة فهو مطية لصاحبه، وقال علي كرّم الله وجهه: «إذا افتقر الرجل أورثه رقة في دينه، ووهنا في مروءته، واحتقارا في قلوب العامة، فجافاه القريب، وتباعد عنه الحبيب»، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: {اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، ومن عذاب القبر}[106]، وقال أيضا: {أسعد الناس من جمع الله له غنى الدنيا ورحمة الآخرة، وأشقى الناس من جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة}.

أَمَا حِسَابُ صَاحِبِ الْحَلاَلِ فَخَطَرٌ يَعْظُمُ لِلرِّجَالِ

يعني أن صاحب المال الحلال يخاف حسابه، ولو كسبوا المال من حلِّه، وجعلوه وسيلة يتوسلون بها إلى فعل الخيرات فهم يخافون حسابه، «فخطر يعظم للرجل»، الخطر أي الإشراف على هلكة أو شيء مخيف، للرجال، أي رجال الله الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، الخوف زجر يزجر الإنسان عن المعاصي والمخالفات، والرجاء قائد يقود العبد إلى الطاعات، فمن لم يزجره خوفه عن معصية الله عز وجل فقد هلك، والمعنى أن رجال الله يخافون عما سيسألون عنه يوم الحساب، قال تعالى: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾[138]، أي ليسألنكم الله جميعا مؤمنين و كفارا عن

[138] - سورة التكاثر: 8

[105]-رواه أبو نعيم في الحلية
[106]-في صحيح أبي داود

النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا كيف أصبتموه و جمعتموه و كيف صرفتم به و السؤال للكفار توبيخا لانهم أعرضوا عن شكر ربهم و سؤال للمؤمنين تشريفا لأنهم شكروا ربهم، وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم: {لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يغمدني الله برحمته}[107]، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه}[108].

كَانَ الَّذِي يَكُونُ لاَ تَعْلَمُ هَلْ كُنْتَ سَعِيدًا أَوْ شَقِيًّا فِي الأَزَلْ

والمعنى أن الإنسان لا يدري هل هو سعيد أو شقي، {الأزل} هو القدم، أو ما لا نهاية له في أوله، الله هو الأزلي، أي دائم الوجود، لا بدْء له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {كتاب كتب الله فيه أهل الجنة بأسمائهم وأنسابهم، مجمل عليهم، لا يزاد فيهم، ولا يُنقص منهم إلى يوم القيامة، صاحب الجنة مختوم بعمل الجنة، وصاحب النار مختوم بعمل أهل النار، من كتبه الله سعيدا في أم الكتاب لم يُخْرِجْه من الدنيا حتى يستعمله بعمل يسعده قبل موته ولو بفواق ناقة}[109]، ثم قال: {الأعال بخواتمها}، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يُختم به عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يُختم له

[107]-متفق عليه

[108]-حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي والبيهقي

[109]-في سنن الترمذي حديث حسن صحيح غريب

بعمل أهل الجنة}[110]. ويروى أنه كان بمصـــر رجل ملازم مســجدا للأذان والصــلاة، وعليه بهاء العبادة، وأنوار الطاعة، فرقي يوما المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دارُ لنصـراني ذمي، فاطلع فيها فرأى ابنة صـاحب الـدار فـافتتن بهـا، وترك الأذان، ونزل إليهـا، ودخـل الـدار، فقـالـت لـه: مـا شــأنك، ما تريد؟ فقال: أنتِ أريد، قالت: لماذا؟ قال لها: قد سَــلَبْتِ لُبي، وأخذت مجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة، قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أتَنصَّرُ، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصــر ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سـطح كان في الدار فسـقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول: {يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك}، فقلت: يا رســول الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخشــى؟ قال: {وما يؤمنني يا عائشــة، وقلوب العبـاد بين أصــبعين من أصــابع الرحمن، إذا أراد أن يقلب قلب عبـد قلبه}[111].

هَـذَا الَّـذِي يُـخَـوِّفُ الـرِّجَـالَ لَـوْ بَلَـغُـوا الْـغَـايَـةَ وَالْـكَـمَـالَ

يعني أن عدم معرفة الخاتمة هو الذي خوَّف رجال الله الكُمّل، ولو بلغوا الغاية في الكمال، يعني الأولياء، وغايتهم القطبانية، القطب: هو القائم بحق الكون والمكون، ويعبر عنه بالغوث، وهو الذي يصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء، وهم دائما في الخوف، الخوف: انزعاج القلب من لحوق

[110]-في صحيح ابن حبان

[111]-صحيح الترمذي

مكروه، أو فوات مرغوب، وثمرته النهوض إلى الطاعة، والهروب عن المعصية، فخوف العامة من العقاب، وفوت الثواب، وخوف الخاصة من العتاب، وفوت الاقتراب، وخوف خاصة الخاصة من الاحتجاب، قال صلى الله عليه وسلم: {المؤمن من يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كالذباب مر على أنفه}[112]، وقال الشيخ عمر رضي الله عنه في كتابه الرماح: أخبرني سيدي محمد الغالي أن الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه كثيرا ما ينشد:

وآمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

فلا جاهل إلا من الله آمن ولا عارف إلا من الله خائف

وقيل: حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام على جلالة قدرهم، وعلو منصبهم ما أمنوا مكر الله، وقال تعالى﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾[(139)].

مَا تَعْلَمُ الْجَوَابَ فِي الْقَبْرِ هَلي يَكُونُ ثَابِتًا بِلاَ خَوْفٍ جَلِي

يعني أن الذي يُخوِّف العبد لا يدري هل يثبت قوله عند سؤال الملائكة، وكلمة "جلي" بمعنى ظهر، إن القبر أول منازل الآخرة، وهو إما عذاب وإما نعيم على حسب عمل المرء، وعن عثمان رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه}[113]، رواه الترمذي. وعن البراء بن عازب قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة

---

[139] - سورة الأعراف: 99.

[112]- في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود

[113]-موقوف عن عثمان بن عفان

رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده صلى الله عليه وسلم عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: {استعيذوا بالله من عذاب القبر} مرتين أو ثلاثة، ثم قال: {إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان}، قال: { تخرج روحه تسيل كما تسيل القطرة من فِي السِّقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض}، قال: {فيصعدون بها فلا يمرون} يعني بها {على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، فدعوه بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونها بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فينفتح له يشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم مرة أخرى}، قال: {فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له بابا منها،

فيأتيه من ريحِها و طيبها، ويفسح له في قبره مد البصر، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، وقال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل اليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، فدعوه بأفبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فلا يفتح له}، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم{: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾[140]، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، فأرجعوه إلى الأرض السفلي فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[141]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث لكم؟ فيقول: هاه هاه،

---

[140] - سورة الأعراف: 40.
[141] - سورة الحج: 31.

لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي، فأفرشا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الثياب، مُنتَن الريح فيقول له: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة}[114].

قَدْ نُشِرَتْ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ هَلْ بِالْيَمِينِ الأَخْذُ وَالشِّمَال

قد نشرت إذا وُزّعَتْ صحائف الأعمال، وأُعطي كلُّ إنسان صحيفته التي فيها جميع أعماله الخير والشر، لا يدري هل سيأخذ كتابه بيمينه أو بشماله؟ فمن أخذ الكتاب باليمين فسوف يحاسب حسابا يسيرا، يعني أن الملائكة تنظر في كتابه، ويقول: هل فعلت كذا فيعترف ويقرّ، وتتجاوز عنه، أي يكون مجرد عرض، أما من أخذ كتابه وراء ظهره عند ذلك نوقش مناقشة شديدة، عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {من حُوسب قوم القيامة عذب}، قالت: فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله:﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾[142]؟ فقال: {ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب}[115].

لَمْ تَدْرِ فِعْلَ اللهِ فِي الْحِسَابِ هَلْ بِالْمُنَاقَشَةِ وَالْعِتَابِ

يعني أن الإنسان لا يدري كيفية حسابه، هل تكون بالمناقشة، المناقشة هي المجادلة، واستقصاء الأحوال، وهي للكافرين والمنافقين، إذ من نوقش

---

[142] - سورة الانشقاق: 8.

[114]-رواه الترمذي عن البراء ابن عازب

[115]- في صحيح البخاري عن عائشة

الحساب يوم القيامة عذب، العتاب: اللوم، وإنكار عليه شيء من أفعاله، والعتاب للمؤمنين، يخلو بهم الرب فيعاتبهم في تلك الخلوات، من يريد أن يعاتبه حتى يذوق وبال الحياء، ويرفض عرقا بين يديه، ويفيض العرق منهم على أقدامهم من شدة الحياء، ثم يغفر لهم، ويرضى عنهم.

خِـذْلاَنُ مَـنْ فُـلِّـسَ مَـرْوِيُّ وَهَـلْ رَدَدْتَ مَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلِ الْخَجَلْ

الخذلان مصدر خذل، أي ترك نصرته وإعانته، الخجل أي الحياء، والمعنى أن الله يترك من فلس، المفلس هو الغني الذي أخذ الدَّيْن فوق ملكه، أي عَمِل الأعمال الصالحات، ولكن أخذ حقوق الناس وأموالهم ظلما، وفي القيامة يؤخذ منه الأعمال الصالحات حتى لا يبقى له شيء فيرمى في النار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {أتدرون من المفلس؟} قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: {إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأخذ من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم يطرح في النار}[116]، ولذلك على المرء أن يتخلص من التبعات قبل فوات الأوان، وقال صلى الله عليه وسلم: {من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن يكون لا دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه}[117].

---

[116]- أخرجه مسلم وابن ماجه

[117]- في صحيح البخاري عن أبي هريرة

إِنْ وُزِنَ الأَعْـمَـالُ لاَ تَـدْرِي هَـلِ يَثْقُلُ فعْلُ الْخَيْرِ أَمْ لاَ فَـاعْقِلِ

يعني أنك لا تدري هل أعمال الخير ستغلب على الشر أم لا؟ هناك موازين توزن بها الحسنات والسيئات، لا تترك مثقال ذرة من عمل الخير في الدنيا، ولا وزن ذرة من عمل الشر، ويجازي كلها في الآخرة، إلا أن يعفو الله عنه، وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[143]، أي جزاء أعمالهم في الدنيا من حسنة وسيئة، فالحسنة تورث الجنة، والسيئة تورث النار.

وبما أن الكفر مانع من دخول الجنة فإن الكافر إذا عمل حسنة في الدنيا يرى جزاءها في الدنيا، وليس له في الآخرة شيء منها، وذلك لحديث عائسة رضي الله عنها، إذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جدعان، هل ينفعه في الآخرة ما كان يفعله في الدنيا من إطعام الحجيج وكسوتهم؟ فقال {لا: لا، إنه لم يقل يوما في الدنيا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين}[118].

فمن ثقلت موازين حسناته فقد نجا من النار، ومن قلت حسناته وكثرت سيئاته، أو لم يكن له حسنة بالمرة كأهل الكفر والشرك فقد خسر خسرانا مبينا، أعاذنا الله من النار.

سَـعْيُكَ فِي الصِّرَاطِ لاَ تَدْرِي هَلي يَكُونُ ذَا سُـرْعَـة أَوْ بُطْءٍ يَلي

يعني أنك لا تدري سعيك في الصراط هل يكون بسرعة أو ببطء، أي ضد سرعة أي تأخر في سيره، وقوله: يل من ولى يلي وليا، أي تبعه من غير

---

143 - سورة الزلزلة: 7

118- لم أجد له أسندا

فضل، الصراط جسر يمره الناس على قدر أعمالهم، وفي الحديث: {الصراط مثل السيف على جسر جهنم، وإن بجنبتيه كلاليب، والذي نفسي بيده إنه ليؤخذ بالكلب الواحد أكثر من ربيعة ومضر}[119]، وعن سعيد بن أبي هلال قال: بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر، وعلى بعض مثل الواد الواسع، عن عبد الله بن سفيان العقيلي قال: يجوز الناس يوم القيامة على الصراط على قدر إيمانهم وأعمالهم، فيجوز الرجل كالطرف في السرعة، وكالسهم المرمي، وكالطائر السريع الطيران، وكالفرس الجود المضمر، ويجوز الرجل يعدو عدوا، والرجل يمشي مشيا، حتى يكون آخر من ينجو يحبو حبوا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: {يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة مزلة عليه كلاليب من النار، يختطف بها، فممسك يهوي فيها ومصروع، ومنهم من يمر كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كجري الفرس، ثم كسعي الرجل، ثم كرمل الرجل، ثم كمشي الرجل، ثم يكون آخرهم إنسانا رجل قد لوحته النار، قال تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾، وقال أيضا: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا، ونذر الظالمين فيها جثيا﴾}[120].

رُؤْيَةُ رَبِّنَا هُوَ الْمَنَّانُ لَمْ تَدْرِ هَلْ يُكْثِرُهَا الرَّحْمَنُ

يعني أن الإنسان لا يدري هل سيكون من الذي يجدون رؤية وجه ربنا المنان، المنان اسم من أسماء الله الحسنى، وفي الحديث: {إن أدنى أهل

---

[119]- حديث مرسل عن عبيد بن عمير

[120]- اسناده حسن المصدر الترغيب والترهيب صحيح لغيره

الجنة منزلة لمن ينظر جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر في وجهه سبحانه وتعالى غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾}[121] ، وأخرجه النسائي عن صهيب قال: قيل لرسول الله: ما معنى هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[144]، قال: {إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ينادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ألم تبيض وجوهنا، وتثقل موازيننا، وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظروا إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجه الله، ولا أقرّ لأعينهم}[122].

وَأَيْنَ أَمْنُكُمْ مِنَ الْخُسْرَانِ قَبْلَ دُخُولِ جَنَّةِ الْمَنَّانِ

ومعنى البيت: عدم الأمن من مكر الله تعالى كما قال تعالى:﴿ أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾، والعبد يجب أن يكون بين الرجاء والخوف، وفي الحديث القدسي عن شداد بن اوس والحسن البصري وأبي هريرة: {وعزتي لا أجمع لعبدي بين خوفين ولا أمنين، فإن هو خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة، وإن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة}[123].

قال العلماء: وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك، وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله، والدّارِ عليك وخيره، وفمهما افتخرت بذلك كنت

---

144 - سورة يونس: 26

121_ أخرجه النسائي

122_ في صحيح مسلم

123_ في الجامع الصغير للسيوطي

كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك، فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، أصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم، الخلاق العليم.

نَسْأَلُهُ التَّوْفِيَقَ وَالْهِدَايَهْ وَالسِّتْرَ فِي الدَّارَيْنِ وَالْوِلاَيَهْ

وفي هذا البيت يعلمنا رضي الله عنه أن نسأل الله ما لا نملك، وهو التوفيق الإلهي، هو أكبر خير يطلبه الإنسان، ومن ناله فقد وُفق في كل شيء، لأن الله يقوده إلى الهدف، ثم بعد التوفيق الهداية هي تصويب العبد إلى طريق توصله إلى الحق، وعلمنا الله في الفاتحة أن نطلب الهداية، لأن الله يهدي من يشاء من عباده، ثم بعد الهداية الستر، الستر هو غطاء العيوب والخطيئات في الدارين، أي في الدنيا والآخرة، لأن الجنة لا يدخلها أحد بعمله، إلا أن يتغمده الله برحمته، ثم بعد الستر الولاية: الولي هو من توالت طاعته، وتحقق قربه، واتصل مدده، أو الولي هو أن يكون متخلقا بأخلاق الرحمة على قدم موروثه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون صاحب حلم ورأفة وشفقه وعفو وعقل ورزانة وجود وشجاعة كما كان موروثه صلى الله عليه وسلم.

وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ للهِ قَبْلَ نَدَامَةِ عَدُوِّ اللهِ

وأمرنا رضي الله عنه بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله وثوابه، فقد ورد في فضل ذلك الآيات والأخبار ما يطول ذكره، قال تعالى: ﴿وما تنفقوا

من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[145]، وقال أيضا: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون﴾[146]، وقال عليه الصلاة والسلام في فضل الإنفاق في سبيل الله عن الله تعالى: {ابن آدم أنفق أنفق عليك}[124]، ويروي لنا زيد بن أسامة وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالا: لما نزل قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾[147] قال أبو الدحداح الأنصري: فِداك أبي وأمي يا رسول الله، إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض؟ قال: {نعم، يريد أن يدخلكم الجنة به}، قال: فإني أقرضت ربي قرضا يضمن لي به ولصبيتي معي الجنة؟ قال: {نعم}، قال: ناولني يدك، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال: إن لي حديقتين إحداهما بالعالية، والأخرى بالسافلة، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضا لله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {اجعل إحداهما لله والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك}، قال: فاشهد يا رسول الله أني جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائة نخلة، قال: {إذا يجزيك الله به كل نخلة جنة}[125].

وقال تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء هو يخلفه، وهو خير الرازقين﴾[148]، كما بين القرآن للمؤمنين أن كل جهد يبذله المؤمن في سبيل الله مادي أو أدبي نفسي أو بدني مما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له في رصيد حسناته عند الله تعالى، لا يضيع منه مثقال ذرة حتى الخطوة التي تمشيها قدمُه، وحتى الفلس ينفقه، وحتى الإحساس بالجوع والعطش والتعب، يقول الله

---

145 - سورة البقرة: 272.
146 - سورة البقرة: 274.
147 - سورة الحديد: 11.
148 - سورة سبإ: 39

124- متفق عليه عن أبي هريرة
125- في الجامع الأحكام القرآن للقرطبي

تعالى: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾[149].

انفق أيها الأخ في سبيل الله قبل الندامة، حيث لا ينفع الندم، أن من لم ينفق في سبيل الله فهو عدو لله، لأنه خالف أوامر الله والرسول الذي يحذرنا من الشح فقال: {إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم الشيطان بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا}[126].

إِنَّ غَنِيًّا مُمْسِكًا قَاسِى الْعَنَا يَحُوزُ غَيْرٌ مَالَه بَعْدَ الْفَنَا

يعني أن الغني البخيل هو الذي يتمسك من ماله خوف الفقر، ولم يثق بالله الذي هو المعطي، والبخل يفضي إلى قسوة القلب الغنا هو القلب، لأن البخيل لا يرحم المنكوبين والمتضررين، والموصوف بهذه الصفة، «يحوز غير ماله» بعد فناءه أي بعد موته المعنى المال يصير ملكا للغير، وفي الحديث: ما طلعت الشمس إلا وعلى جنبيها ملكان يقول أحدهما: {اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا}[127]، ولا يخفى على أحد أن دعاء الملائكة مستجاب، ومن أمسك فإن لم يتلف ماله التلف الظاهر فهو تالف بالحقيقة لقلة انتفاعه به في آخرته ودنياه، وذلك أعظم من التلف الذي هو ذهاب المال.

نَدَامَةُ الْمُمْسِكِ لاَ يَسُدُّهَا شَيْءٌ نَعَمْ إِذْ فَاتَهُ مَحَلُّهَا

---

[149] - سورة التوبة: 120

[126]- في سنن أبي داود

[127]- أخرجه أحمد وابن حبان

يعني أن البخيل الممسك على ماله، ولم ينفق في سبيل الله نادما حين لا ينفع الندم، وقوله: لا يسدها: من سد يسد، أي عرض، أي لا ينفع الندم، إذ فاته محل الندامة، لأنه إذا مات لا يرجع إلى الدنيا، والدنيا محل عمل، والآخرة محل جزاء، قال تعالى يحكي ذلك المنظر: ﴿قال رب أرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها، ومن وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[150]، أو سوف يقول عندما ينزل به الموت، ويعاين الآخرة: ﴿لولا آخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾.

فَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ شَيْءٌ غَيْرُ مَا قَدَّمَهُ مِنْ مَالِهِ كُنْ فَهِمَا

والمعنى ليس للإنسان من ماله غير ما قدمه لنفسه، يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى﴾[151]، وقال صلى الله عليه وسلم: {إن أغنياء أمتي لن يدخلوا الجنة إلا حبوا، فهلم يا ابن عوف فأطلق اسرك ببعض مالك}[128]، فتصدق بثلث ماله، ثم تصدق ببعير أتته من خيبر تحمل مالا كثيرا، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قد أطلق أسره، وأن الملأ الأعلى يسمونه تاجر الله وتاجر رسوله، وعبد الرحمن ابن عوف كان من أغنى الصحابة، وكانوا كثيرا ما يعيرونه بكثرة أمواله، فيقول لهم: إن الله أعطانيها من غير مسألة له، ولا ميل إليها، فقبلت من الله عطيته، وأسأله أن يعينني على أداء حقه، وشكر نعمته، فقالوا له: إن كنت صادقا فابعث إلى خيبر عيرا تحمل تمرا، فإن بعت علمنا صدقك، وإلا حكمنا عليك بأنك مكاثر، فبعث عيرا تحمل تمرا إلى خيبر، فلما قدمت عليها جعلوا يضحكون ويعجبون من عير تحمل التمر إلى خيبر،

---

[150] - سورة المؤمنون: 100.
[151] - سورة النجم: 29.

[128]- روي عن أنس حديث ضعيف

فأقاموا يوما وقد عزموا على الانصراف، وكان العير قد وافى خيبر، وقد اشتد بها الوباء، فجاء رجل مصاب فأخذ تمرة فأكلها، فما هو إلا أن ازدردها برئ من علته، فقام وكأنما نشط من عقال، فأتى المدينة وجعل يصيح: يا قوم هلم إلى العير، فإن تمرها شفاء مما بكم من البلاء، فإني قد أشفيت على الهلاك، فما هو إلا أن ابتعلت ثمرة من تمرهم برئت فقمت وكأنما نشطت من عقال، فأقبل الناس إليهم، وانعقد البيع بينهم على أن كل تمرة بدرهم، فأنفدوا من يومهم، وارتحلوا من الغد، فلما دخل المدينة العير تحمل الورق وقد أدلجت وأقعست من ثقل ما تحمل أقبلوا إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقالوا له: إن عيرك قد رجعت بتمرها، فقال لهم: امهلوا، فلعلها تحمل غير التمر، فوجدوها تحمل الورق، فتصدق بالعير، وبما تحمل رضي الله عنه، يا أخي اعلم أن ما قدمت من مالك هو الذي ينفعك هنالك، لذلك قال رضي الله عنه محكيا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قَالَ رَسُولُ اللهِ أَوْ مَا أَكَلاَ أَوِ الَّذِي لَبِسَهُ فَأَبلاَ

وَكُلُّ مَا قَدَّمْتُم مِنْ مَالِكُمْ فَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ عِنْدَ رَبِّكُمْ

يعني أن المال ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ما أكلت وما لبست، وهذان مآلهما البلاء، وما قدمت من الصدقات والأعمال الخيرية هي التي تنفعك غدا، ومن أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار، وترك الادخار، لأن الصوفي يرى خزائن فضل الحق، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ البحر، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قِرْبتِه، فالصوفي كل خباياه في

خزائن الله لصدق توكله وثقته بربه، فالدنيا للصوفي كدار الغربة، ليس له فيها، ولا له منها استكثار.

إِذْ كُلُّ مَا أَخَّرَهُ الإِنْسَانُ فَذَاكَ لِلْوراث يَا نَوْمَانُ

يعني كلما ادخره الإنسان وخبأه فهو للوارث، وليس له في ما له إلا ما قدمه لنفسه، قال تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، هو خيرا وأعظم أجرا﴾[152]، وأمر الله عباده بالمبادرة إلى ما يوجب المغفرة، ودخول الجنة في قوله تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء﴾[153]، أي في جميع الأحوال، « نومان»: صيغة المبالغة، أي كثير النوم، إن الإنسان إذا همّ بالصدقة أتاه شيطان الصدقة فيُحسِّنُ في عينه المبذول فأكف وإلا حذره الفقر، فإن كف فذلك وإلا أمره بالرياء والسمعة ليفسد عليه عمله الذي غَلبه أن يكفه عنه، فإن أخلص نيته لربه وأعجزه أتاه من وجه آخر وهو أن يلقي في نفسه أن الله لا يُخلف له ما تصدق به في الدنيا، ولا يثيبه عليه في العقبى، ويوسوس له بعيوب المتصدق عليه، وهل هو ممن يتقبل الله الصدقة عليه، فإن لم يغلبه على هذه وأعطاها مخلصا موقنا بالخلف في الدنيا، والثواب في الآخرة ﴿فسنيسره لليسرى﴾.

مَنْ تَرَكَ الأَمْوَالَ لِلْوِلْدَانِ وَمَاتَ لاَ زَادَ فَذُو خُسْرَانِ

يعني أن من ترك الأموال لأولاده، ولم يتزود للآخرة فقد خسر خسرانا مبينا، قال صلى الله عليه وسلم: {أفضل الناس عبد أخذ من الدنيا

---

[152] - سورة المزمل: 20.
[153] - سورة آل عمران: 133.

الكفاف، وصاحب فيها العفاف، وتزود للرحيل، وتأهب للمسير، ألا وإن أعقل الناس عبد عرف ربه فأطاعه، وعرف عدوه فعصاه، وعرف دار إقامته فأصلحها، وعلم سرعة رحلته فتزود لها، ألا وإن خير الزاد ما صحبه التقوى، وخير العمل ما تقدمته النية، وأعلى الناس منزلة عند الله أخوفهم منه}[129].

مَتى يَكُونُ عَاقِلاً مَن أَغْنَى غَيْرًا وَأَرْدَى نَفْسَهُ وَأَقْنَى

يعني العاقل هو الذي يؤثر غيره على نفسه، وأردى وأهلك نفسه بالطاعة، وأقنى، أي امتلك نفسه، قال صلى الله عليه وسلم: {الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني}[130]، يروى أن الله تعالى يأمر مناد فينادي: ألا مَن المعروف بالكرم فليعتزل عن أهل المحشر لأخلو بهم، وأريهم كرمي لتخلقهم بخلقي، وتسميتهم باسمي، فإني أجلهم أن أؤاخذ خلقي بذنوبهم، وهم شاهدون، فيأمر بهم فيكسون من حلل الكرامة، ويتوجون من تيجان القرب والسلامة، ثم يؤتون بمطايا لها أجنحة من نور، فلا تأوي (تستقر) حتى تدخلهم ظل عرشه فيحييهم ويقول لهم: أنتم الذين كنتم تؤثرون على أنفسكم الفقراء، وأرباب الفاقة والغرباء والأيتام، وكنتم تأنفون أن أراكم على لؤم أو نقص أو رذيلة؟ فيقولون: بفضلك وفقتنا، وبكرمك شرفتنا، وبجودك عرفتنا، وبإرادتك صرّفتنا، فلك الحمد، فالكل منك وإليك، تباركت وتعاليت، فيقول: أرضيتم عبادي إذ صيّرتكم إلى كنفي، والناس

---

[129]- عن عبد الله بن عمر في الأربعون الودعانية

[130]- أخرجه الترمذي

يعالجون شـدائد المحشـر؟ فيقولون: نحن عنك راضـون، إلا أنك خلقتنا، وجبلتنا على الغيرة والأثرة، ولنا أحباء وأقرباء وعشائر ومعارف، يشق علينا أن تؤثر أنفسـنا عليهم في دار الدنيا دار الفقر والفاقة، وكيف وقد رأينا من جودك وكرمك وواسـع فضـلك في دار كرامتك وجوارك ما أريتنا؟ فيقول: ليس لهم من الأعمال مثل ما لكم، ولا لهم من المنزلة ما لكم، فيقولون: قد علمنا، لكن فضـلك يسـعهم، وأنفسـنا تطيب بأن تعطيهم ثواب أعمالنا فتدخلهم الجنة، وتدخلنا النار، فيضحك الكريم ثم يقول لملائكته: انظروا يا ملائكتي إلى كرم عبادي هؤلاء، إذ رضوا بدخول النار في مثل هذا الموقف، وقد عاينوا من كرامتي إياهم ما عاينوا في جنب إيثارهم وكرمهم الذي قد جبلتهم عليه في دار الدنيا على كرم النفس والأثر في دار الدنيا، وبعثتهم على ذلك، فهل منك معشر الملائكة من يقدر على مثل هذا؟ فيقولون: لا، فقال: ذلك لتعلموا أني أعلم في آدم وذريته من الكرم ما لا تعلمون، فأقروا بشرف بني آدم، فقال: أشـهدكم وأشـهد ملائكتي أني قد ألحقت بكم ذريتكم، وشـفعتكم في كل من شـفعتم فيه من أحباءكم وعشـائركم من غير أن أنقص من أعمالهم مثقال ذرة، أفترونني كرمكم اليوم وأنا أكرم الأكرمين؟

أَدُّوا حُـقُـوقَ اللهِ مِـنْ أَمْـوَالِـكُـمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَكُمْ حِمَـامُكُمْ

«أدوا» فعل أمر من أدى يؤدي، «حقوق» جمع حق، وحق الله في الأموال هو الزكاة، قال صـلى الله عليه وسـلم: {إن الله فرض على أغنياء المسـلمين في أموالهم بقدر الذي يسـع فقراءهم، ألا وإن الله يحاسـبهم حسـابا شـديدا، ويعذبهم عذابا أليما}[131]،

[131]- موقوف عن علي بن أبي طالب

وأداء الزكاة من الأسباب الجالبة للوئام والمحبة بين المسلمين بين أغنياهم وفقراءهم، تزيل ما قد يقع في النفوس من الحقد والحسد، ويحصل بسببها التعاطف والتراحم، وتسود المحبة في المجتمع كله، يا أخواني بادرو إلى إخراج حقوق الله طيبة بها نفوسكم تسلموا من سخط الله، وأليم عقابه، وتفوزوا برضوانه وثوابه قبل أن يأتيكم الحمام بكسر الحاء أي الموت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { ويل للأغنياء من يوم القيامة يقول الفقراء: بم ظَلَمُونا حقوقنا التي فرضتَ عليهم، فيقول الله تعالى: وعزتي وجلالي لأدّنيّنَّكم، ولأباعدنَّهم، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿والذين في أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[154]}[132]

رَزَقَنَا الدَّيَّانُ هَذَا الْمَالاَ وَقَالَ أَنْفِقُوا اسْمَعُوا مَا قَالاَ

«الديان» صيغة المبالغة من دان يدين اسم من أسماء الله تعالى، وهو الديان، أي الذي يقضي بين عباده بأعمالهم يوم الدين، والمعنى أن الله هو الذي رزقك هذا المال، وأمرك أن تنفقه فيما أمرك، وأنت وكيل، وهو سبحانه وتعالى المالك، قال تعالى:﴿ءامنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين ءامنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾[155]، ويفهم من هذه الآية أن الغني مستخلف في ماله، يفعل ما أمره المستخلِف.

زِينَةُ هَذَا الْمَالِ لاَ تَزِيدُ إِلاَّ سَوَادَ الْقَلْبِ يَا مُرِيدُ

يعني أن زينة المال وحبها تدفع إلى التنافس والتنازع والاختصام، وحب الغلبة بأي ثمن وبأية وسيلة والأنانية، فيذكر المرء نفسه، وينسى أخاه،

---

[154] - سورة المعارج: 24
[155] - سورة الحديد: 7

[132]- أخرجه الطبراني والديلى

وينظر إلى ذاته نظرة استعلاء وكبر، وإلى الناس نظرة ازدراء واحتقار، يخون الأمانات، وينكث العهود، ويبغي ويغش ويرتشي ويظلم وينافق ويستبيح الحرمات، ويدوس القيم، وهذه الأشياء كلها تؤدي إلى سواد القلب وقساوته، ولم يبتل الله عبدا بأشد من قساوة القلب بعد الكفر، ومن أسبابها الإصرار على أي ذنب كان، وطول الأمل، والغضب لغير الله عز وجل، والحقد على المسلمين، وحب الدنيا، وحب الرئاسة، والفرح بالحظوظ العاجلة، والغم من أجل فقدها، والغفلة عن ذكر الله، وقد بلغت الأسباب أربعا وعشرين خصلة، ولكن ما السبيل إلى مقاومة هذه الأمراض؟

التداوي على أيدي أطباء القلوب، أي التربية على أيدي المشايخ الواصلين يوصلونهم إلى حضرة المولى عز وجل، وقوله: يا مريد، المريد هو من لا إرادة له دون مولاه، أو من تعلقت إرادته بمعرفة الحق، ودخل تحت تربية المشايخ الذين يدفعونهم إلى الزهد في الدنيا وما فيها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { وكيف يعمل للآخرة من لا تنقطع عن الدنيا رغبته، ولا تنقضي فيها شهوته، إن العجب كل العجب لمن صدّق بدار البقاء وهو يسعى لدار الفناء، وعرف أن رضى الله في طاعته وهو يسعى في مخالفته}[133].

قِلَّةُ مَالِ الْمَرْءِ لاَ تَمْنَعُ أَنْ يُنْفِقَ قَدْرَ وُسْعِهِ يَا مَنْ فَطِنْ

والمعنى أن الإنسان لا يمنعه الإنفاق في سبيل الله بسبب قلة ماله، قال تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾[156]، ويفهم من هذه الآية كلما زاد على حاجة الإنسان يجوز إنفاقه, على المسلم أن يحسن كما أحسن الله إليه ببذل الفضل من

---

156 - سورة البقرة: 219.

133- كتاب الوصايا لابن عرابي الأندلسي

أمواله، وإن الصدقة بالقليل من المقل أفضل عند الله من التصدق بالكثير من المكثر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {سبق درهم الف درهم قيل له كيف ذلك فقال رجل لا يملك إلا درهمين تصدق بأحدهما، ورجل أخذ من عرض ماله بألف درهم، فسبق الدرهم الألف}[134]، يعني عنده عشرة آلاف وتصدق بألف، وأبقى لنفسه التسعة، وقوله: « يا من فطن » أي يا ذكي.

تَذْكُرُ قَوْلَ اللهِ مَادِحًا لَهُمْ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ بِمَا أَلْهَمَهُمْ

إِذْ قَالَ رَبُّنَا وَيُؤْثِرُونَا اقْرَأْ عَلَى تَمَامٍ مُفْلِحُونَا

أشار رضي الله عنه هنا إلى قوله تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأوليك هم المفلحون﴾[157].

ومعنى الإيثار أن يكون عندك شيء من متاع الدنيا محتاجا إليه فتؤثر به على نفسك من إخوانك المؤمنين، فتكون بذلك من المفلحين، إنما مدح الله المؤثرين على أنفسهم تشجيعا لهم ليخرجوا من حكم الطبع لأن ذلك أعلى ممن يبدأ بنفسه، وقيل: سبب نزول هذه الآية ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: { من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟} فقام رجل من الأنصار

---

[157] - سورة الحشر: 9.

[134]- أخرجه البزار عن أبي هريرة

فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تدّخريه شيئا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية فنوّميهم، وتعالي فاطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد {أعجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة}، وأنزل الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾}[135]، ومما نقل أن رجلا رأى أخا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه، فأنكر أخوه ذلك منه فقال: يا أخي سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة، تسعون لأكثرهما بشرا، وعشرة لأقلهما بشرا}[136]، فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر.

كَفَاكَ قَوْلُ اللهِ لَنْ تَنَالُوا رَدْعًا وَإِنْ تَبْخَلْ فَبِيسَ الْمَالُ

يعني يكفيك قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[158]، أي لابد أن تنفقوا مما تحبون من أموالكم لتنالوا البر، والبرّ كلمة جامعة لكل خير، «ردعا»: أي دفعا ومنعا وزجرا من البخل، إن البخل يهلك المال، وفي الحديث: {ما طلعت الشمس إلا وعلى جنبيها ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا}[137].

ودعاء الملائكة مستجاب، والصدقة تنجيك من النار، وتقيك من البلاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة}[138]، وقال أيضا: {تصدق كل يوم بشيء وإن قل،

158 ـ سورة آل عمران: 92.

135ـ أخرجه البخاري ومسلم
136ـ أخرجه البزار عن عمر بن الخطاب
137ـ أخرجه أحمد وابن حبان
138ـ أخرجه البخاري ومسلم

واجعله من أول النهار، فإن البلاء لا يخطئ الصدقة}[139]، وقوله: «فبيس المال» أي المال الذي لم ينفق في سبيل الله.

مَا لِبَخِيلِ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ سِوَى عَذَابِ اللهِ وَالنِّيرَانِ

ومعنى البيت أن من بخل بنعمة الله ليس له سوى عذاب الله والنيران لأنه خالف أوامر الله في عدم الإنفاق في سبيل الله، وفي الخبر: {الكريم محبوب عند الله، ومحبوب عند الناس، وقريب من الجنة، وبعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، وبعيد من الناس، وبعيد من الجنة، وقريب من النار}[140].

وقال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما ءاتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السماوات والأرض، والله بما تعملون خبير﴾[159].

مَنْ كَانَ مُوقِنًا بِأَنَّ اللهَا يَرْزُقُ لاَ يَبْخُلُ خَافُوا اللهَا

يعني أن من تيقن أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين لا يبخل، لأن الله تكفّل بأرزاق عباده، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين﴾[160]، وقال أيضا: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم﴾[161]، يبين الله في هذه الآيات أن لا أحد على الإطلاق يأتي الرزق، فهو مُصدِره من السماء بالغيث النافع، ومن الأرض بالإنبات، يقول الحق تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا، والسماء بناء، وصوّركم فأحسن صوركم، ورزقكم من

159 - سورة آل عمران: 180.
160 - سورة هود: 6.
161 - سورة العنكبوت: 60.

139- لم أجد له اسندا
140- موقوف

الطيبات، ذلكم الله ربكم فتبرك الله رب العالمين﴾[162]، وإن من كمال قدرته تعالى أنه نافذ الإرادة والمشيئة، يقول تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾[163]، أي ما يعطي الله تعالى من نعمة حسية أو معنوية من رزق وغيث وصحة أو علم ونبوة وحكمة فلا مانع له، وما يمنع من ذلك فلا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، عن المغيرة بن شعبة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من الصلاة قال: {لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد}[141]، وبناء على ذلك على المؤمن أن يتوكل على الله، ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[164]، وقوله: «خافوا الله»، وإذا خاف المؤمن الله لا يخاف شيئا ولا فقرا ولا غير ذلك.

نَهى الْعَظيم خَالِقُ النِّيرَانِ عَنِ التَّكَاثُرِ لِذِي طُغْيَانِ

يعني أن الله العظيم خالق النيران نهى الإنسان عن التكاثر والتفاخر بالمال لذي الطغيان، لأن المال يطغي صاحبه، قال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾، وقال: ﴿وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾[165]، وعلى المسلم أن يقنع بالقليل الذي لا يطغي، وقد فسر بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ بالقانع في الدينا، وقوله: ﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾[166] بالحريصين على الدنيا، وفي الزبور: {ابن آدم

141_ في صحيح البخاري عن سلمان الفارسي

162 - سورة غافر: 64.
163 - سورة فاطر: 8.
164 - سورة الطلاق: 3
165 - سورة النازعات: 37
166 - سورة الانفطار: 14

عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك، ابن آدم لا بالقليل تقنع، ولا من كثير تشبع، إذا أصبحت معافى في جسدك، آمنا في سربك، عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفا}[142]، أي الهلاك، والدروس وذهاب الأثر، والمعنى: إذا وجدت هذه الأشياء ماذا تفعل بهذه الدنيا التي اندرست معالمها، وبعض الهواتف الربانية يقول الله عز وجل: { يا عبدي خلقتك لي وحدي، وجعلت الملائكة تقودك إلى حضرتي ما دمت قانعا مني بالرغيف، وسترت العورة لك ولعيالك، فإذا طلبت مني فوق ذلك قطعت الحبل بيني وبينك، فلا تقدر على النهوض إلى حضرتي خطوة واحدة}[143].

فأما من طلب المال بنية صالحة للاستعانة به على الآخرة وصيانة المروءة، ولم يشغل ذلك عن عبادة الله وذكره، فذلك مما لا بأس به ولا حرج فيه، لأن من لا كسب له والناس ينفقون عليه من جملة النساء والصبيان وليس له حظ ولا نصيب في الرجولية، قال تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة﴾[167].

قَالَ إِلَهُنَا وَمَا لَكُمْ إِلَى تَمَامِهِ كُنْ عَالِمًا وَعَامِلاَ

وأشار رضي الله عنه هنا إلى قوله تعالى: ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى، والله بما تعملون خبير﴾[168]، وطلب منك رضي الله عنه أن تكون عالما، لأن العلماء ورثة الأنبياء، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار}[144]، ومعنى

---

[167] - سورة النور: 37
[168] - سورة الحديد: 10

142- أخرجه الطبراني عن عمر بن الخطاب
143- لم أجد له اسنادا
144- شرح مشكل الآثار الراوي أبو سعيد الخدري

الحســـد هنا الغبطة، ولكن إذا كنت عالما فكن عاملا به، وقيل: مثل العلم الذي لم يعمل بعلمه كمثل من نظر في كتاب سيده وعلم ما فيه فلم يمتثل لشــيء من أوامره، ولم يجتنب شــيئا من نواهيه التي نص عليها في كتابه، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم: { تعلموا ما شـئتم، فوالله لا يقبل منكم حتى تعلموا به}[145]، وقال أيضــا: {أشــد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه}[146].

بَـادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ قَبْـلَ الْفَوْتِ لِكَيْ يَطِيبَ الْعَيْشُ بَعْـدَ الْمَوْتِ

لقد أمر الله بالمســابقة إلى عمل الخيرات في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿سـابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضـها كعرض السـماء والأرض أعدت للذين ءامنوا بالله ورســله﴾[(169)]، وقوله تعالى: ﴿فاســتبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾، وبناء على ذلك يجب على الإنســان أن يعمل الأعمال الصــالحات قبل فوات الأوان، إذ بعد الموت لا عمل فيه، بل فيه الحصـاد والجزاء، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم: {يا معشــر المسـلمين شــمروا فإن الأمر جدّ، وتأهبوا فإن الرحيل قريب، وتزودوا فإن الســفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن وراءكم عقبة كؤود، لا يقطعها إلا المخففون (الى ان قال) فأعدوا لذلك الإيمان، وأعضــوا عليه بالنواجذ، والجؤوا إلى العمل الصـالح، وأكرهوا عليه النفوس، واصـبروا على الضـراء تفضـوا إلى النعيم الدائم}[147]، وقوله رضـي الله عنه: « لكي يطيب العيش بعد الموت»، أي من عمل العمل الصــالح حصــل له نفعه في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

---

[169] - سورة الحديد: 21

[145]- ابن عبد البر في جامع بيان العلم الراوي عباد بن عبد الصعر

[146]- أخرجه الدارقنطي عن أبي هريرة

[147]- المصدر العربعون الودعانية عن أنس بن مالك

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

لاَ تُطِعِ النَّفْسَ وَلاَ الشَّيْطَانَا تُفْلِحْ وَتُرْضِ رَبَّنَا الرَّحْمَانَا

وطلب منك رضي الله عنه أن تخالف النفس والشيطان لأنهما لا يأمران إلا بالشر، فإن خالفتهما تفلح وترض ربنا الرحمن، وعلى العبد أن يجاهد نفسه والشيطان، قال تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾[170]، وهذا أمر لعموم المسلمين بالجهاد، كل منهم حسب استطاعته، وأول مراتب الجهاد جهاد النفس، وثانيها الشيطان، وثالثها جهاد الكفار والمنافقين، فإن العبد ما لم يجاهد نفسه أولا ويلزمها بفعل ما أمر به وترك ما نهي عنه لا يمكنه جهاده عدوه الخارجي مع ترك العدو الداخلي، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: {المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه}[148]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: {ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا}[149]، وقال أيضا لحصين بن عبيد: {أسلم حتى أعملك كلمات ينفعك الله بها، فقال: قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي}[150].

فمن لم يسلم من شر نفسه لم يصل إلى الله تعالى، لأنها تحول بينه وبين الوصول إليه، والناس قسمان: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار مطيعا لها، وقسم ظفر بنفسه فقهرها حتى صارت مطيعة له، فالنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يأمر عبده بخوفه،

---

[170] - سورة الحج: 78

[148]- أخرجه الألباني عن فضالة بن عبيد

[149]-صحيح عن ابن عباس

[150]- أخرجه الترمذي مرسلا عن عمران بن الحصين

ونهي النفس عن الهوى، والعبد إما أن يجيب داعيَ النفس فيهلك، أو يجيب داعيَ الرب فينجو، والنفس تأمر بالشح وعدم الإنفاق في سبيل الله، والرب يدعو إلى الإنفاق في سبيله، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[171].

والعدو الثاني بعد النفس هو الشيطان، عدو أبينا آدم، وعدو البشرية كلها، وقد حذرنا الله منه فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾[172]، فإن الشيطان قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾[173].

ارْفضْ أَخِي دُنْيَاكَ لِلنُّقْصَانِ خَالِفْ هَوَاكَ تَنْجُ مِنْ خُسْرَانِ

وطلب منك رضي الله عنه يا أخي أن ترفض دنياك، الرفض هو الترك، والمعنى أن تترك الدنيا لنقصانها، لأن الدنيا دار من لا دار له، وله يجمع من لا عقل له، لأنه دار فناء، والعاقل لا يأخذ الفناء، ويترك الباقي، وروي عن عائشة رض الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:{ إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تخلعي ثوبا حتى ترقّعيه}[151]، و في الحديث: { ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع}[152]، وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس قائلا: {هذه دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، ألا

---

171 - سورة التغابن: 16.

172 - سورة فاطر: 6.

173 - سورة الأنعام: 112.

151_رواه البخاري

152_في صحيح مسلم

وإن الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا، وثواب الآخرة من الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، وإنها لسريعة الذهاب، وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها لكربة آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قضى الله خرابها ولا تواصلوها، وقد أراد الله منكم اجتنابها فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين}[153]، وفي هذا الحديث الحث على الزهد في الدنيا، والاحتقار لها، والقناعة بالقليل منها، وقوله: « خالف هواك تنج»، يعني أن نجاة الإنسان كانت في مخالفة النفس، وقيل: من أراد تقويم اعوجاج فليشتغل بقمع نفسه عن متابعة هواها، ومتابعة هوى النفس تحجب العبد عن الوصول إلى حضرة القدس، ومن غلب نفسه فقد فاز، ومن غلبته نفسه فقد خسر خسرانا مبينا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { من قضى نهمته من الدنيا حيل بينه وبين شهوته في الآخرة، ومن مد عينيه إلى زينة المترفين كان مهينا في ملكوت السماوات، ومن صبر على القوت الشديد صبرا جميلا أسكنه الله من الفردوس حيث شاء}[154].

نَجَاةُ إِنْسَانٍ بِلاَ انْفِصَامِ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ عَلَى الدَّوَامِ

يعني نجاة وفوز الإنسان كان في قتل نفسه على الدوام، وقتلها هو منعها ما تريد، ودفعها إلى ما تكره، قال بعض الحكماء: جاهد نفسك بأصناف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القلة من الطعام، والغمض عن المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلة

[153]- المصدر الاربعون الودعانية عن عبد الله بن عمر

[154]- أخرجه الطبراني عن البراء بن عازب

الطعام موت الشـهوات، من قلة المنام صـفوة الإرادات، ومن قلة الكلام السـلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، فليس على العبد شيء أشد من الحلم عن الجفاء، والصبر عند الأذى، وفي الخبر: { ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناهمة في الدنيا جائعة عارة يوم القيامة، ألا يا رُبَّ مُكْرِم لنفسـه وهو لها مهين، ألا يا رُبّ مهين لنفس وهو لها مكرم، ألا متخوّص ومتنعم فيما أفاء الله على رسـوله ما له عند الله من خلاق، ألا وإن عمل الجنة حزَنٌ برُبْوَةٍ، ألا وإن عمل النار سهل بشهوة، ألا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا}.

يَا أَيُّهَا النَّوَّامُ قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِتَوْبَةٍ نَصِيحَةٍ لِرَبِّكُمْ

«النوام» صيغة مبالغة في كثرة النوم، «بتوبة نصيحة» أي التوبة الخالصة، وفي هذا البيت يأمرك رضي الله عنه أن تتوب إلى الله توبة نصوحا، والنوام هو الغافل، أيها الغافل انتبه من غفلتك، واستقم إلى صراط مستقيم، لأن الإنسان كثيرا ما يضل عن الطريق المرسوم، وينحرف عنه تحت ضغط شهوة جامحة، وهذا الانحراف يهبط بالمستوى الإنساني إلى المستوى الحيواني، وفي خلال هذه المحنة يقال له: لا عليك، فإنك لم تخلق ملكا مطهرا، ولا بشرا معصوما، وإنما أنت إنسان تتنازعك قوى الخير والشر، وتتقلب طبيعتك الروحية أحيانا، فتسمو وترتفع، وأحيانا أخرى تتغلب عليك شهوات الجسد فتخلد إلى الأرض، وتردى إلى أسفل سافلين، وإنما عليك أن تصحح أخطاءك إذا أخطأت، وتعالج أمراضك إذا مرضت، وتغسل نفسك مما يكون قد ران عليها، وتستأنف من جديد، يقول رسول

الله صلوات الله وسلامه عليه: { كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون}[155].

وكثيرا ما يفتح الإسلام باب الأمل والرجاء، ويدعو العصاة إلى التوبة والاستغفار، لأن الله سبحانه يغفر لهم ما دعوه ورجوه مهما عظُم الجرم، وكثر الإثم، قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾، وقال: ﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾[(174)]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها}[156]، وقال أيضا: { إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر}[157]، أي يحتضر، ولذلك قال رضي الله عنه:

انْتَبِهُوا قَبْلَ حُلُولِ الأَجَلِ لِكَيْ تَنَالُوا الأَمْنَ يَوْمَ الْوَجَلِ

يعني انتبه أيها الإنسان من نومك، وتدارك ما فات قبل حلول الأجل، لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار حساب، وقال الناظم رضي الله عنه في خطبة الجمعة المشهورة بين العامة و الخاصة :« فبادروا بالأعمال الصالحات، وما عند الله خير وأبقى، ولهو الدنيا أشر وأشقى»، وقال أيضا في نفس الخطبة: « واتركوا الغفلة، فما بعد الحياة إلا الممات»، وقال النبي ﷺ:{يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل

174 - سورة النساء: 110.

155- رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم
156-في صحيح مسلم عن أبي موسى الاشعري
157- أخرجه الترمذي وابن ماجه

أن تشـغلوا، وصـلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له}[158]، « ويوم الوجل» هو يوم الخوف، وهو يوم القيامة، ويسمى يوم الفزع الأكبر.

تَدَارَكُوا مَا فَاتَ مِنْ تَقْصِيرِكُمْ قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلِقَاءِ رَبِّكُمْ

والتدارك ما فات من التقصير هو رد المظالم والحقوق، والحقوق تنقسم إلى قسمين: حقوق الله وحقوق العباد، وحقوق العباد تنقسم إلى البدني والمالي، ولا يكفي في التوبة الاستغفار فقط، بل لابد من تدارك ما فات، ولذلك قال تعالى: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾[175]، الإصلاح هو قضاء الفائتة من الصلوات والزكاة والصوم، وردّ الحقوق والمظالم، إذا كثرت السيئات على الإنسان عليه أن يبادر إلى تصحيح الأحوال، وإصلاح الأوضاع، وكذلك ما فات بالعمل الصالح والاستغفار كما قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[176]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { وأتبع السيئة الحسنة تمحها}[159]، ومن أراد التوسع في التوبة فليرجع إلى كتاب المؤلف رضي الله عنه: هداية المذنبين.

يُحَاسَبُ الْمَرْءُ عَلَى النَّقِيرِ يَا صَاحِ فَاعْلَمْ وَعَلَى الْقِطْمِيرِ

يعني أن الإنسان يحاسب بالقليل من أعماله، وبالكثير منها، والجليل والصغير، قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[177]، « النقير» هو ثقبة أو نقرة في ظهر نواة التمرة، و«

175 - سورة آل عمران: 135.
176 - سورة آل عمران: 135
177 - سورة الزلزلة: 8

158- أخرجه ابن ماجه
159- رواه الترمذي وقال حديث حسن

القطمير» هو قشرة رقيقة التمرة، « يا صاح»: المنادى المرخم، أي صاحبي، والمعنى أن الله لا يترك القليل ولا الكثير حتى الكلمات التي يقولها الإنسان يحاسب بها، قال تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[178]، وقال أيضا: ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله على كل شيء قدير﴾[179]، وقال أيضا: ﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾[180].

إِيَّاكَ وَالشُّحَّ وَطُولَ الأَمَلِ مَنْ كَانَ زَاهِدًا فَذُو تَأَمُّلِ

ويحذرك رضي الله عنه من البخل لأنه من الأخلاق المذمومة، قال تعالى:﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾، وقال أيضا:﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {اياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم}[160]، وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: {إن السخاء شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن أخذ بغصن منها جره إلى الجنة والبخل شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن اخذ بغصن منها جره إلى النار}[161].

ويحذرك من طول الأمل، وهو استكثار طول البقاء في الدنيا، وقال بعض السلف: من طال أمله ساء عمله، لأن طول الأمل يحمل الإنسان على الحرص في الدنيا، والتشمير لعمارتها، وحينئذ ينسى الآخرة، ويشتغل عنها، فلا يخطر له أمر الموت، ووجوب الاستعداد له بالأعمال الصالحة، كأن

178 - سورة ق: 18
179 - سورة البقرة: 284
180 - سورة النساء: 86

160- أخرجه الشيخان وأحمد وأبو داود
161- أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء

أجله في يده، يموت متى شاء، وطلب منك رضي الله عنه أن تزهد في الدنيا، الزهد: هو عزوف النفس عن الدنيا، وبرودة الدنيا من القلب، فزهد العامة ترك ما فضل عن الحاجة في كل شيء، وزهد الخاصة ترك ما يشغل عن التقرب إلى الله تعالى في كل حالة، وزهد خاصة الخاصة ترك النظر إلى ما سوى الله في جميع الأوقات، قال عليه الصلاة والسلام: { ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس}[162]، وقال أيضا: {من أحب آخرته أضر بدنياه، ومن أحب دنياه أضر بآخرته، فآثروا ما يبقى على ما يفنى}[163]، وقال صلى الله عليه وسلم: { من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره، وحفظ عليه ضيعته، وأتته الدنيا وهي راغمة}[164].

حَانَ الْمَمَاتُ وَعَلاَمَ تَغْفُلُ عَنِ الْعِبَادَةِ وَمَاذَا الْكَسَلُ

يعني أن الموت قريب منك، «وعلام» أي على ماذا تغفل، أي لماذا تلعب وتتكاسل عن العبادة، الدنيا إنما هي مزرعة للآخرة، فمن لم يحرث هنا شيئا لم يحصد ثمة إلا الحسرة والندامة، ومن لا عمل له لا أجر له، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، فإذا علم الله الصدق من عبده فتح عليه من خزائن غيبه، وجعله من أهل قربه، قال تعالى:﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله مع المحسنين﴾[181].

دَوَامُ ذِكْرِ اللَّهِ خَيْرُ مَا اشْتَغَلْ بِهِ عِبَادُ اللهِ قُولُوا لِي أَجَلْ

يعني أن الذكر من أعظم القربات، وعلى المريد مداومة الذكر، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[182]،

181 - سورة العنكبوت: 69.
182 - سورة الأحزاب: 42.

162- رواه ابن ماجه والطبراني وابن حبان بسند حسن
163- رواه ابن حبان عن أبي موسى الأشعري
164_ أخرجه ابن ماجه عن زيد بن ثابت بسند جيد

وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: {اذكروا الله ذكرا كثيرا، حتى يقول المنافقون أنكم تراءون}[165]، وفي جامع الصـغير:{ من أكثر ذكر الله برئ من النفاق}[166]، وفيه: {من أكثر ذكر الله أحبه الله تعالى}[167]، وفي الحديث: {ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفـاق الـذهـب والورق، ومن أن تلقوا عـدوكم فيضـربوا أعنـاقكم وتضـربوا أعناقهم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله}[168]، وفي الحديث القدسـي أن الله عز وجل يقول: (يا عبدي اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك بينهما)[169].

كَـمْ ذَاكِـرٍ صَـــارَ بِـهِ وَلِـيًـا كَـمْ غَـافِـلٍ لَاهٍ بَـقَـى غَـبِـيًّـا

يعني أن الذكر له سـر عجيب في تطهير القلوب، وبه يرتفع الذاكر إلى مرتبة الولاية، الذكر هو ركن قوي في طريق الوصـول إلى الحضـرة القدسـية، وهو منشور الولاية، فمن ألهم الذكر فقد أعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل، وقيل: ما ثمّ كرامة للعبد أفضل من ذكر الله تعالى، لأنه يصير جليسا للحق كلما ذكر، ويقول الله تعالى في الحديث القدسـي: (أنا جليس من ذكرني)[170].

وبالذكر يقطع المريد الحجب حتى يصـل إلى مرتبة المشـاهدة، وقال تعالى:﴿ الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[183]، وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: { ما قعد قوم يذكرون الله تعالى إلا

183 - سورة الرعد: 28.

165- أخرجه أبو نعيم عن عبد الله بن عباس بسند غريب
166- أخرجه السيوطي عن أبي هريرة
167- المصدر ضعيف الجامع
168-الراوي أبو الدرداء المخرج البغوي
169- جامع الصغير
170- رواه الديلى

حفتهم الملائكة، وغشـيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السـكينة، وذكرهم الله فيمن عنده}[171].

ومعنى «لاه» من لهى يلهو، أي لاعب، «غبيا» أي جاهلا، والمعنى أن الغافل عن الذكر، والمعرض عنه غبيّ جاهل، لو عرف ما في الذكر من الفوائد لشـغل به طول عمره، وقد أمر الله بالإكثار من ذكره لشـدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسـرانه فيها أعظم مما ربح فيها، ولا ريب أن القلب يصـدأ كما يصـدأ النحاس والفضـة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، وأصبح يشاهد ما لم يكن يشهده.

مَـنْ تَـرَكَ الـدُنْـيَـا لِأَجْـلِ اللهِ يَـنَـالُ مَـا يَشَـاءُ عَـنْـدَ اللهِ

يعني أن من ترك لذة الدنيا لأجل الله ينل ما يريد من عند الله، وكم في كتاب الله من التحذير من الإغترار بهذه الدنيا وذمها، وبيان سـرعة زوالها، وضـرب الأمثال لها ما يكفي بعضـه زاجرا لمن كان له قلب، أو ألقي السـمع وهو شـهيد، قال تعالى:﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم: {ارغب فيما عند الله يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس}[172].

إن الزاهد في الدنيا يريحُ قلبه في الدنيا والآخرة، وقال أيضا: { من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة فيها، ومن انقطع إلى الدنيا وكّله إليها، ومن حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجى، وأقرب له مما اتقى، ومن طلب

---

[171]- أخرجه ابن ماجه وأحمد
عن أبي سعيد الخدري بسند صحيح

[172]- في حلية الأولياء عن سهل بن سعد الساعدي
بسند غريب مرفوع

محامد الناس بمعاصي الله عاد حامده منهم ذما، ومن أرضى الناس بسخط الله وكّله الله إليهم، ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه فيما بينه وبين الناس، ومن أحسن سريرته أصلح الله له علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه}[173].

أَلَا اتْرُكُوا يَا قَوْمِ سُمًّا قَاتِلًا يَغُرُّ مَنْ لَيْسَ لَبِيبًا عَاقِلًا

وطلب منك رضي الله عنه في هذا البيت أيها الأخ أن تزهد في الدنيا لأنها سمٌّ قاتل، والدنيا تغر من ليس عاقلا، لإنها كالسراب، والأحمق يظنه ماء، قال عيسى عليه السلام: {مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء اليم، كلما زاد شربا ازداد عطشا حتى يقتله}.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له}[174]. وقال أيضا: { هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا؟ ألا إنه من رغب في الدنيا، وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا، وقصر أمله أعطاه الله تعالى علما بغير تعلما، وهدي بغير هداية، ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا باتباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العزة لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله تعالى ثواب خمسين صديقا}[175].

---

[173]- المزى عن عبد الله بن عباس في الأربعون الودعانية

[174]- حديث مرسل عن الحسن البصري

[175]- حديث مرسل غريب عن الحسن البصري

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن الحسن قال: بلغني قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثرُ أم ما بقي أنفذوا الزاد، وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب، وانتهى إليهم، قال: يا هؤلاء علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى، قال: أرأيتم إن هديتكم على ماء ورياض خضراء ما تجعلون لي؟ قالوا: لا نعصيك شيئا، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئا، قال: فأوردهم ماء ورياضا خضراء، قال: فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كماءكم، ورياض ليست كرياضكم، قال: فقال جل القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش هو خير من هذا، قال: وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه، فوالله ليصدقنكم في آخره، فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل، الدنيا سراب في طي شراب، فالمطمئن إليها مغرور، والمحب لها مبتور، وقيل: أول ما يخاطب به الميت قول الملائكة: أجَمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك؟ أفرَّقت الدنيا أم الدنيا فرَّقتك؟ أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك؟ فتجيبهم الحفظة بحقيقة أمره.

وإن الدنيا في الحقيقة لا تذم لذاتها فهي قنطرة أو معبرة إلى الجنة أو إلى النار، وإنما يذم فعل العبد فيها، أي تحمد وتذم بحسب ما استعملت فيه،

وقد ثبت ثناؤه صلى الله عليه وسلم بقوله: { الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر}[176]

لَا تَطْلُبُوا أَنْ تُكْرَمُوا بِالنَّسَبِ لِأَنَّهُ بِالدِّينِ لَا بِالحَسَبِ

والمعنى: « لا تطلبوا أن تكرموا بالنسب»، أي بالقرابة، و« لا بالحسب»، أي المنصب أو الجاه، بل الإنسان يكرم بدينه، الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، والناس يتفاوتون في امتثالهم لأوامر الله، واجتنابهم لنواهيه، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[184]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { لينتهين أقوام يفتخرون بأنسابهم، إنما هو فحم النار}[177]، من عادة الناس أن يتوارثوا المشيخة والإمامة، ومن طبيعة الإنسان أن يعطي الأبناء ثمرة حركتهم وعملهم وهم مسرورون، ولذلك لما أرد إبراهيم أن ينقل الإمامة إلى أولاده رده الله بقضية إيمانية، لأن الله علق الوصول الى هذا المقام بعمل و جهد و إبراهيم عليه السلام وصل إليه بعمله وجهده، وقال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[185]، أي الفاسق والجاهل، وقال صلى الله عليه وسلم:{ نحن معشر الأنبياء لا نورث}[178]، لأن بنوة الأنبياء غير بنوة الناس، فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم، وأبناؤهم هم الذين أخذوا منهم هذه القيم، وليس بالدم، ولو رجعنا إلى قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه رفع يديه إلى السماء وقال: ﴿رب إن

184 ـ سورة الحجرات: 13
185 ـ سورة البقرة: 124

176ـ أخرجه ابن القيسراني عن عبد الله بن مسعود
177ـ أخرجه الترمذي عن أبي هريرة بسند حسن
178ـ متفق عليه

ابني من أهلي﴾، رد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال: ﴿إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾[186]، وابن الشيخ كالشيخ إذا كان له أهلية والده، المشيخة هبة من الله، وهو الذي يظهره ويكرمه بنعمة القبول والمحبة بسبب علمه وزهده وطاعته لربه، وتمسكه بكتاب الله، وسنة رسوله، فيفتح الله عليه كما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض}[179]، وبسبب هذه المحبة يجتمع الناس حوله بقصد التربية الدينية والروحية المبنية على كتاب الله، وسنة رسول صلى الله عليه وسلم، وبقصد تبرك بحبيب الله فيرحل الناس إليه من كل الجهات وهو في نفسه كاره لهذا الظهور، خائف من النفس والشيطان، وهذا الشيخ يذكرك الله إذا رأيته، وقال بعضهم:

للشيخ آيات مبينات فإن لم تكن له فما هو إلا في ليالي الهوى يسري
ان لم يكن له علم لديه بظاهر ولا بباطن فاضرب به لجج البحر

وأما المدعون بالمشيخة في عصرنا هذا فأكثرهم جاهلون بأمور دينهم، ولا يعرفون شيئا من كتاب ربهم، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأصبح الناس يتوارثون المشيخة كلما مات أحد منهم يجلسون ابنه الأكبر مقامه، وورث ما كان لأبيه من المريدين، قال بعض الشيوخ: من أراد أن يكون شيخا من غير أمر الله فهو أحمق، ومن أراد أن يكون شيخا من غير مواهب

186 - سورة هود: 46

179- متفق عليه

الله فهو مجنون، ومن أراد أن يكون شيخا بالجد والنسب فهو جاهل، ومن أراد أن يكون شيخا بالقبيلة والنسب فهو كافر، ومن أراد أن يكون شيخا بالتذلل والمسكنة للمخلوقات فهو منافق.

اعلم أيها الأخ أن الشيخ لا يعين، بل هبة من مواهب الله، ولكن في عصرنا هذا يقول البعض: إن شيخي جعلني شيخا، ولو كان المعيّن جاهلا لا يعرف شيئا من كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ويتجرء أن يقول: لا أعرف من القرآن غير الحرف الذي يشبه رقم التسعة، ومع ذلك يتبعه الجهلاء، يا عجبا كيف تكون مريدا لمن لا يستطيع أن يعلم شيئا من كلام الله؟

وبعضهم يقول: إن العلماء لا يعرفون إلا قال الله ورسوله، وإذا خرجنا من هذا يضلون، يا سبحان الله، هل هناك علم أعظم من فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟ وهل هناك موعظة أعظم من كلام الله؟ قال تعالى:﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾[187]، وقيل: { ومن لا يتعظ بالقرآن لا وعظه الله}.

مَنْ طَهَّرَ القَلْبَ مِنَ العُيُوبِ يَعِيشُ صَالِحًا بِلَا ذُنُوبِ

يعني إذا طهر الإنسان قلبه من العيوب كالكبر والرياء والحسد والعجب وغير ذلك يعيش صالحا وفائزا بخيري الدارين، وسالما بلا ذنوب، لأن القلب هو سيد الجوارح، وتلك الأعضاء، وهو معدن العقائد والأخلاق، ومصدر النيات المذمومة والمحمودة، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا لمن طهره، وزكّاه

[187] - سورة ق: 45

عن القبائح والرذائل، وزيّنه وحلاه بالمحاسن والفضائل، قال الله تعالى: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾.

القلب هو رئيس الجوارح وأميرها، وعليه يدور صلاحها وفسادها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب}[180]، ففي هذا الحديث دليل على أن صلاح أعمال العبد متعلق بصلاح قلبه، وكذلك فساده متعلق بفساد قلبه، فالقلوب على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قلب سليم وهو السالم من الآفات والمكروهات، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وخشيته، وخشية ما يباعد عنه، قال تعالى:﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[188].

النوع الثاني: القلب الميت الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده، فهو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فلا يستجيب للناصح، بل يتبع كل شيطان مريد، هو الذي يقول:﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾[189].

النوع الثالث: القلب المريض، وهو قلب له حياة وبه علة، فالقلب الأول قلب مخبت واع لين حي، وهذا القلب هو بيت الله سبحانه وتعالى، وقيل عن الله سبحانه وتعالى: { لا تسعني أرضي ولا سمائي ولا عرشي ولا كرسيي، ولكن يسعني قلب عبد المؤمن}، والقلب الثاني يابس ميت، والقلب الثالث قلب مريض، ولحياة القلوب وموتها ومرضها أسباب يفعلها الإنسان، فمن أسباب حياته الإقبال على الله، وتلاوة كتابه وتدبره، والاشتغال بذكره، قال

---

188 - سورة الشعراء: 26.

189 - سورة الملك: 10.

180- أخرجه البخاري وسلم باختلاف يسير عن نعمان ابن بشير

تعالى: ﴿الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ وقال أيضا: ﴿ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾[190] ومن أسباب حياتها مجالسة الصالحين ومخالطتهم والاقتداء بهم، ومن أسباب موتها إعراضها عن قبول الحق بعد معرفتها له، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[191].

والقلب الميت يكون صاحبه أحط من البهائم، ويكون مصيره إلى جهنم، قال تعالى:﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[192].

فيصبح هذا القلب مطموسا منقوسا مختوما عليه، لا ينتفع به صاحبه لأنه أعرض عن الحق، ورضي بالباطل، فصار الباطل غذاءه، والضلال طريقه، والجحيم مصيره، نعوذ بالله من الخذلان.

وأما أسباب مرض القلوب فمنها أكل الحرام، وفعل المعاصي، فإن المعاصي تؤثر في القلوب وتمرضها، قال تعالى:﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[193]، وقد ورد في الحديث {أن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقلت تلك النكتة}[181]، وإلا تزايدت وعظم خطرها على القلب، ومن أسباب مرض القلوب استماع ما لا يجوز استماعه من الكلام المحرم، ومن أسباب مرض القلوب النظر المحرم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: {النظر سهم مسموم من سهام إبليس}[182].

---

190 - سورة الحديد: 16.
191 - سورة الصف: 5.
192 - سورة الأعراف: 179.
193 - سورة المطففين: 14

181- الذهبي عن أبي هريرة بسند صحيح
182- المصدر الترغيب والترهيب عن عبد الله بن مسعود

فينبغي للمؤمن ألا يزال خائفا من تقلب قلبه، والقلب سمي قلبا لكثرة تقلبه، قال تعالى:﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾[194]، فلما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أنخشى سلب الإيمان بعدما خالطت بشاشته قلوبنا، واطمأنت إليه أنفسنا، قال: { نعم، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها ظهرا لبطن}[183]. فلما سمعوا ذلك تغشوا إحراماتهم، وجعلوا يبكون فأنزل الله:﴿يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[195]، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول: { اللهم مثبت القلوب ثبت قلبي على الإيمان}[184].

وحاسبوا أنفسكم من قبل أن تحاسبوا يوم العقاب والفتن

يعني: يجب على العبد أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب «يوم العقاب» أي العذاب «والفتن»، أي يوم فتنة هو يوم القيامة، «المحاسبة» هي عتاب النفس على تضييع الأنفاس والأوقات في غير أنواع الطاعات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { الكيس من دان نفسه – حاسبها – وعمل لما بعد الموت}[185]، وينبغي للعبد أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، ويقول لنفسه في أول نهاره هذا يوم جديد، وما لي بضاعة إلا العمل، فإن فنى فَنِيَ: وهذا اليوم عليك شهيد، فاجتهدي في تعمير أوقاته بما يقربك إلى الله، ولو متِّ بالأمس لفاتك الخير الذي تفوزين به فيه فقد أمهلني الله فيه، فإياك إياك أن تضيّعيه، ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل.

194 - سورة الأنعام: 11
195 - سورة إبراهيم: 27

183- أخرجه الألباني والنسائي في السنن الكبرى
184- أخرجه ابن ماجه والنسائي وأحمد
185- أخرجه الترمذي وابن ماجه عن شداد بن اوس

فلا تبقى بعد ذلك إلا المراقبة لها عن الخوض في الأعمال السيئة، فإنها إن تُركتْ طغت وفسدت، وكذلك يحاسبها عند إقبال الليل، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التاجر في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة حريصا على الدنيا الفانية ليختبر رأس المال و الربح، فإن وجد فضلا استوفاه وشكر، وإن وجد خسرانا طالبه بضمانه، وكلفه تداركه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار، وعامله نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض، فإذا أداها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أدّاها ناقصة كلفها الجبر بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعذيبها ومعاتبتها، ولا يمهلها لئلا تتأنّس بفعل المعاصي، ويعسر عليها فطامها.

أخرج البيهقي من طريق أبي أمامة: أن النفوس ينكرون يوم القيامة كونهن بَاشرن الذنوب، فيأمر الله الأعضاء فيشهدون بما عملوا، قال تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾[196]، فإذا شهدوا قالت لهم النفس: سُحقا وبُعدا، إنما كان جدي واجتهادي في تخليصكم، وقال تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾[197]، وقالت النفس: فحيث شهدتم على أنفسهم، فهلم أحاكمكم إلى الله، فإنما أنا ريح، فيتحاكمان إليه، فيقول الجسم: أي رب إنما أنا خشبة ملقاة لا أسمع ولا أبصر ولا أعقل ولا أسعى حتى أتتني النفس فحملتني، وجعلتْ تسعى به إلى مآربها حتى اكتسبت ما اكتسبت، واقترفت ما اقترفت، فلم تزل على تماديها فيما اشتهته حتى أتاها رسولك،

---

196 - سورة النور: 24.
197 - سورة فصلت: 21.

ذهب بها، فصـــرت جمادا كما كنت، فإن كنت معذبا فعذبها، فإنه لا ذنب لي، وإما جاءني الخذلان من قبلها، فتقول النفس: أي رب إنما أنا ريح مارة، ونفحة طاهرة، حتى أمرتني بســياســـة هذا البدن الجرمودي، فباشـــرته وخالطته، فلوثني بعيوبه، ودنســني بذنوبه، ركبت فيه الشــهوات، وحجبته بالغفلات، فجعلت أصــيره إلى أوطاره حتى أتاني رســولك، فذهب بي إلى عالمي، وتركته مرتهنا بعالمه، فإن كنت معذبا فعذبه، فإنه لا ذنب لي، إذ ليس لي بطن ولا فرج ولا يد ولا رجل، فيقول الله لهما: إني أحكم بينكما، أرأيتما إذا جاء رجلان إلى شــجرة مثمرة، أحدهما مقعد، والآخر أعمى، المقعد يبصــر، ولا قدرة له على النهوض، والآخر يقدر على الســعي والنهوض ولا يبصـــر الثمار، فقال المقعد المبصـــر للأعمى: إني أرى ثمارا، ولو كانت لي قدرة على النهوض لتناولتها، فقال الأعمى: هلم فارتحلني حتى أســعى بك إليها، فلنأكل منها، ولتناولني حتى نقضــي نهمتنا ففعلا، فإذا قدر عليهما رب الشــجر فأيهما يؤاخذ بذنب؟ فيقولان له: يؤاخذهما معا، يقول لهما: فذلكما أنتما، فيأمرهما إلى النار إن شـــاء أو يعفو، وفي هذا يقول تعالى:﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾[198].

تـراكـم الـذنـوب في الـقـلـوب يـمـنـع أن يـتـوب ذو الـذنـوب

«تراكم» من ركم يركم ركما: الشــيء جمعه وجعل بعضــه فوق بعض حتى يصــير ركاما مركوما كركام الرمل، قال تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضــه فوق بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم﴾[199]، وتراكم هو تراكب بعض على بعض في القلب، وذلك يمنع العبد من التوبة،

198 - سورة النحل: 11.
199 - سورة الأنفال: 37.

ويجب على العبد التوبة من كل ذنب كبير أو صغير فورا، أي اتصال المعصية بالتوبة، وإذا تراكمت الذنوب في القلب يمنع العبد أن يتوب كما في الحديث: { إن العبد إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، وإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه، فذلكم الرين الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾}[186].

وإذا وصل إلى هذا الحد لا يعمل إلا معصية، ولا يسمع المواعظ، واعلم أن كل شهوة اتبعها الإنسان ترتفع بها ظلمة إلى قلبه، وهي النكتة، فإذا تراكمت ظلمة الشهوة تراكم الرين، فإذا تراكم الرين صار طبعا، فإذا تراكم الطبع صار ختما، وقال تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾[200]، وعلى العبد بعد التوبة محو آثار ظلمة الشهوة، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم: { فأتبع السيئة الحسنة تمحها}[187]، وذلك بمباشرة حسنة تضاد آثار تلك السيئات، فيكفر سماع الملاهي وغيره من المحرمات بعد التوبة بسماع القرآن والحديث، وملازمة مجالس الذكر والمواعظ.

فكن رحيما بعباد الله تكن عظيم الشأن عند الله

يعني: كن رحيما بعباد الله كلهم، وفي الحديث: { الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعيال الله}[188]، وقال أيضا: { لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، فقال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة}[189].

200 ـ سورة البقرة: 7.

186ـ سبق استخراجه
187ـ سبق استخراجه
188ـ أخرجه البزار والطبراني عن أنس بن مالك
189ـ رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح

فإذا رحمت مخلوقات الله تكن رفيع القدر عند الله، وقال صلى الله عليه وسلم: { الراحمون يرحمهم الرحمن، ومن لا يرحم لا يُرحم}[190]، والرحمة بالمسلمين أمر واجب، وحق لازم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: { ومن لا يغفر لا يُغفر له، ومن لا يتب لا يتيب عليه، إنما يرحم الله من عبادة الرحماء، ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف حق كبيرنا، وليس منا من غشنا، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، البركة في أكابرنا، فمن لم يرحم صغيرنا، ويجل كبيرنا فليس منا}[191]، وقال عليه الصلاة والسلام: { ومن أجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم}[192].

يحرم احتقار أهل الأرب للنهي عن ذلك وسوء الأدب

يعني:« يَحْرُم احتقار» أي تقليل قدر – «أهل الأرب» أي ذوو الحاجات الفقير المحتاج، و على المسلم أن يحب الفقراء، لأن رحمة الله لا تفارقهم لمحبة الله لهم، فلا تردهم خائبين، إياك أن تنهرهم، فإن الإنسان قد ينهر السائل نهرة لو أعطاه معها نصف ماله مثلا كانت تلك النهرة أرجح منه، وربما لا يساوي ثواب ما أعطاه إثم ذلك الانتهار، فالقيام بأداء عبادة الإنفاق بأسلوب خاطئ وغير لائق بالأدب يؤدي بالعبد إلى نفس العاقبة السيئة، قال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾[201]، لقد علمنا الله قواعد الأدب في الإنفاق، وأمرنا بالتقيد بها، قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم، يا أيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن

[201] - سورة البقرة: 264

[190]- أخرجه الترمذي وأحمد وأبو داود
[191]- اخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد
[192]- أخرجه أبو داود عن أبي موسى الأشعري

والذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا، لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[202]، وبين الله في هذه الآية أنه لا قيمة عند الله لعمل قام به أحد من الناس وقد أهان محتاجا، أو أخجل فقيرا، أو استهزأ بمسكين، والذين ينفقون أموالهم بقلب قاس كالحجر، وخال من العواطف والمشاعر الإنسانية فإنهم يقطعون بأيديهم على ثوابهم وأجورهم، وعلى المسلم أن يحترم المساكين، ويضع نفسه مكانهم، ويتفكر ويتأمل في أنه ربما في يوم من الأيام يصل إلى حد تسوء فيه حالته، ويؤول إلى حال ذلك الفقير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة}[193]، ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم: { اللهم أحيني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين}[194]، قال الشهروردي: لو سأل النبي صلى الله عليه و سلم أن يحشر المساكين في زمرته لكان لهم الفخر العميم، والفضل العظيم، فكيف وقد سأل أن يحشر هو بنفسه في زمرتهم؟!

قوا يا عباد الله أنفسكم نارا وأهليكم ومملوككم

وأمر الله كذا الرسول تعليمهم اسمع كما أقول

لا تتركوهم بلا علم ولا عبادة المنان جل وعلا

---

202 - سورة البقرة: 262 – 264

193- أخرجه القيسراني في ذخيرة الحفاظ

194- أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك بسند ضعيف

وقوله: «قوا» فعل أمر من وقى يقي وقاية، يعني اطلبوا ما يقيكم من النار أنتم وأهلك ومملوكك، أي كل من كان تحت رعايتكم عليكم أن تنقذوهم من النار، وتنقذوا أنفسكم بطاعة الله واجتناب ما حرم الله، وتأمرنهم أيضا ذلك، وأن تجتهدوا جميعا في العبادة والطاعة، وتنقذوا أنفسكم من نار الجحيم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾[203]، لأن الله ورسوله أمرا أن نعلم أولادنا العلم النافع، ونربيهم وننشئهم على الأخلاق الفاضلة، وإرشادهم إلى ما فيه نفعهم و فلاحهم، وفي الأثر:

{ ألزموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم}، وفي هذا الحديث إرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه الآباء من ملازمة أولادهم، ليكون تصرف الأبناء تحت نظر الآباء، فإذا تصرف أحدهم أيّ تصرف يَحتاج إلى توجيه كان ذلك التصرف موضع العناية بحسن التربية، كانت لهم المثوبة، وإن أساءوا تربيتهم استوجبوا العقوبة، فمن فرط منهم في تربية أبنائه فإنه والله سيندم في الدنيا، وإذا ضيع المسلم أولاده خسر كل شيء لا قدر الله، احذروا الإهمال أيها الآباء لا تشتغلوا بالدنيا وجمع المال، وتنسوا الكنز الذي لا يفنى، فإن الإهمال مآله الندم، عالجوا أخلاقهم كما تعالجون أجسامهم، فإنهم رعيتكم، وأمانة لديكم، وإن الله سائل كل راع يوم القيامة عما استرعاه، حفظ أم ضيع، وروى الترمذي عن أبي موسى عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { ما نحَل والد ولدا من نحْل أفضل من أدب حسن}[195]، والأبناء يخلقون مزودين بقوى فطيرة تصلح أن توجه للخير كما تصلح أن توجه للشر، وعلى الآباء أن يشغلوا هذه القوى ويوجهوها وِجهة الخير حتى ينشأ الطفل في خير ينفع نفسه،

---

[203] - سورة التحريم: 6.

[195]- أخرجه الترمذي

وينفع مجتمعه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: { كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه}[196].

رم التواضع ذر التصنعا وطلب الشهرة يا مستمعا

«رم» فعل أمر من رام يروم، أي اطلب التواضع، أي تخشع وتذلل، ومن أحسن أخلاق الصوفية التواضع، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع. التواضع من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، والتكبر من صفات الشياطين. كما قال تعالى في إبليس اللعين: ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[(204)]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله}[197]، وقال أيضا: { إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة}[198]، ـــــ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا رحمكم الله}[199] ، وقال أيضا: { إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك مذلة لهم وصغار}[200] ، يعني التكبر على المتكبر عبادة، وعن أبي يزيد البسطامي رحمه الله قال: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، قيل: فمتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا، وقيل: { رحم الله من عرف قدره ووقف دونه}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { إن الله

---

[204] - سورة البقرة: 34

[196]- متفق عليه
[197]- السيوطي في الجامع الصغير
[198]- في الإحياء عن عبد الله بن عباس
[199]- طبقات الشافعية الكبرى لم أجد له اسنادا

أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد}[201].

فإذا أردت أن تتبين لك مظاهر التواضع في الحياة والصورة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم اليوم في علاقته بالناس فعُدْ إلى وصية لقمان لابنه التي يريد بها الوالد الخير لولده، ومن خلالها يتربى المؤمن على الخير والفضيلة منذ الصغر، يقول الله تعالى على لسان لقمان:﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[(205)].

فقد وجّه الأبُ ابنه إلى ضرورة التزام آداب التواضع مع الخلق بأن لا يُعرض بوجهه عن الناس إذا كلموه تكبرا أو احتقارا بسبب رفعة المنصب أو المنزلة الاجتماعية، أو وفرة المال أو التفوق في العلم، بل يجب أن يكون متواضعا سهلا هينا لينا منبسط الوجه مع قبول الحق ممن قاله تماما، وحذّر لقمان ابنه من أن يسير على الأرض مختالا متبخترا جبارا عنيدا، فإن تلك المشية يبغضها الله تعالى، بل قال له:﴿ واقصد في مشيك ﴾، أي امش مشيا متوسطا عدلا، ليس بالبطيء المتماوت الذي يظهر الضعف، لا السريع المفرط الذي يثب وثب الشيطان.

ومن وصايا لقمان لابنه ألا يرفع صوته فيما لا فائدة فيه، لأن شدة الصوت تدل على الغرور والاعتداد بالنفس، وعدم الاكتراث بالغير.

دخل رجل على خليفة من الخلفاء العباسيين فأغلظ القول عند نصحه له فردّ عليه الخليفة قائلا: هوّن عليك، لقد أرسل الله من هو أفضل منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى وهارون وهما أفضل منك إلى فرعون وهو شر

---

205 - سورة لقمان: 18.

200- أخرجه الألباني في صحيح الجامع بسند حسن

مني، فقال لهما:﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[206].

وقوله: « ذر التصنعا»، ذر فعل أمر بمنعى اترك التصنع: وهو اظهار ما ليس فيك وهو نوع من الرياء، بل النفاق بعينه، إذ معنى النفاق أن يظهر بلسانه وجوارحه ما ليس في قلبه، التصنع من محبطات الأعمال، وفي الحديث:

{ أشد الناس عذابا يوم القيامة من يُري الناس أن فيه خيرا ولا فيه}[201]، وعلى المؤمن أن يكون على طبيعته، سواء كان منفردا أو بين الناس، وفي الحديث: { يؤتى أناس من الناس يوم القيامة إلى الجنة حتى إذا دنوا منها، واستنشقوا رائحتها، ونظروا إلى قصورها، وإلى ما أعد الله تعالى لأهلها نودوا أن اصرفوهم عنها، لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة وندامة ما لا يرجع الأولون والآخرون بمثلها، فيقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددته لأوليائك، فيقول الله تعالى: ذلك أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، يعني متواضعين، تراءون الناس بأعمالكم بخلاف ما تنطوي قلوبكم عليه، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجللتم الناس ولم تُجلّوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم عذابي مع ما حرمتكم من ثوابي}[202]، وقوله: «وطلب الشهرة» معطوف على ذر التصنع، وطلب الشهرة يعني اترك حب الظهور والصدارة في كل شيء وقيل حب الظهور يقطع الظهور، وهذا أيضا نوع من التكبر أعاذنا الله من هذه الأمراض القلبية.

---

206 ـ سورة طه: 43.

201ـ أخرجه السيوطي عن عبد الله بن عمر

202ـ في هادية المذنبين

بـر بـوالـديـك في كـل هـدى واعصـهمـا إن أمراك الاعتـدا

ويأمرك رضي الله عنه أن تبر لوالديك بهدى وصلاح، ولا تطعهما في معصية والاعتداء، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأمر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن نطيعهما، وقال:﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾[207].

ومن خلال هذه الآية نفهم أن دين الإسلام دين الإحسان والوفاء، يدعو الأبناء إلى تسديد الدين الذي في أعناقهم للأمهات والآباء مقابلة إحسانهم بالإحسان، ومعروفهم بالامتنان وجميلهم بالعرفان، لأن للأمهات والآباء مثل الإيثار والتصحية، ورمز البذل والمحبة يتفانون في سبيل تربية أفلاذ أكبادهم، ويضحّون بكل شيء من أجل ميعادهم، وتأمين الحياة الكريمة لهم، ويتحملون كل أنواع المشقة لأجلهم، وهم في غاية السعادة والرضى، وقرن القرآن الكريم وجوب الإحسان إلى الوالدين بوجوب توحيد الله في العبادة حتى ندرك فضل بر الوالدين، ومقام طاعة الأبوين في ديننا العظيم. والقرآن الكريم يوصينا بآبائنا وأمهاتنا خاصة حينما يتقدمون في السن، ويكونون في أمسّ الحاجة إلى السند والعون، ومن يكون سندهم بعد الله إلا أولادهم الذين ربوهم رُضعا، لا حول لهم ولا قوة، وعانوا من أجل تنشئتهم في الطفولة والفتوة ما عانوا.

---

[207] - سورة الإسراء: 23.

ويطلب منك رضي الله عنه التواضع والتذلل للوالدين، والتوقير والتبجيل للأبوين بكل ما هو معروف من ألوان الأدب والتهذيب، خاطِبْ أبويك بلطف واحترام، قم لأبويك حيثما يدخلان عليك لا تجلس قبلهما، لا ترفع صوتك فوق صوتهما، لا تقاطعهما أثناء الحديث، لا تتضجر من نصائحهما، لا تمش أمامهما، لا تناديهما بأسمائهما، شاورهما في الأمر، حافظ على سُمعتهما، اجعل مالك تحت تصرفهما، احرص على رضاهما، أكثر من الدعاء لهما، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعتبر كبرَ الوالدين فرصة للأولاد حتى ينالوا برعايتهما في سن الشيخوخة جنات النعيم، وتعس وخاب ذلك الذي تفوته تلك الفرصة بالعقوق والعصيان أو الغفلة والإهمال، يقول عليه الصلاة والسلام: { رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة}[203]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: { الصلاة لوقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله}[204]، وورد أن برد الوالدين أفضل من الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله، وأن العاق لوالديه لا ينظر الله إليه يوم القيامة، وأنه لا يرح رائحة الجنة.

وبالجملة فحق الوالدين أعظم الحقوق بعد حق الله وحق رسوله، فعليك ببرهما، وبالإحسان إليهما وبطاعتهما، ولكن بر الوالدة أضعاف بر الوالد بما قاسته الأم من آلام، وما تحملته من متاعب وأسقام في الحمل والوضع والرضاعة والفطام، والعناية بك في الليل والنهار، ويجب أن تقدم لها ما

[203]- أخرجه الشيخان عن أبي هريرة

[204]- متفق عليه

تستحقه من الشكر والتقدير، وجزيل التبجيل والتكريم، يقول الحق جل وعلا: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك، إلي المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾[208].

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: {أمك، قال: ثم من؟ أمك، قال: ثم من؟ أمك، قال: ثم من؟ أبوك}[205]، يجب أن نعلم أنه لا يمكننا أن نؤدي حقوق آبائنا وأمهاتنا مهما فعلنا من معروف تجاههم، وروي أن رجلا حمل أمه وطاف بها وسعى، فسأل عبد الله ابن عمر رضي الله عنه: هل أدّيت حقها؟ فقال: لا، ولا بزفرة واحدة، أي من الطلق أثناء الوضع.

ويروى أن رجلا قال لعمر رضي الله عنه: إن أمي مقعدة، وأنا أخدمها وأحملها وأنظفها، فهل أدّيت حقها؟ فأجاب عمر: لا، لأنها كانت تخدمك وأنت صغير وهي ترجو حياتك، وأنت تخدمها الآن وترجو موتها.

والاختلاف في الدين لا يسقط حق الوالدين في البر والإحسان، فينبغي برهما حتى ولو كانا على غير دين الإسلام، والقرآن يوجب علينا طاعة الوالدين إلا إذا أمراك بمعصية، أو دعواك إلى شرك، فلا طاعة لهما، وقد سبق ذكر الآية في سورة لقمان، الآية 14.

وبناء على ذلك الخير كله في طاعة الوالدين والإحسان لهما إذا أردتم نيل ثواب الجهاد في سبيل الله، فبروا آباءكم وأمهاتكم، فإن برهما جهاد وفوز يوم الميعاد، أقبل رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: {فهل

---

208 - سورة لقمان: 14.

205- متفق عليه

من والديك أحد حي؟ قال: نعم، بل كلاهما، قال: فتبغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما}.

وجاء رجل آخر يستأذن في الجهاد فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد}[206].

إذا أردتم رضوان الله وجنات النعيم فارضوا آباءكم، وأحسنوا إلى أمهاتكم، وقيل: {الوالد وسط الجنة، فإن شئت فأضِع ذلك الباب أو احفظه}، وفي الحديث: {رضى الله في رضى الوالدين، وسخطه في سخطهما}[207].

وكما يجب على الإنسان أن يبر والديه في حياتهما، وكذلك يجب بعد وفاتهما، وذلك بالدعاء والاستغفار لهما، وبالتصدق عنهما، وقضاء ديونهما، وتنفيذ وصاياهما، وبصلة أرحامهما، وبر أصدقائهما، وأهل مودتهما، وقال رجل: يا رسول الله، هل بقي عليّ من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما؟ قال: نعم، {الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما}[208]، وقال صلى الله عليه وسلم: {رحم الله والدا أعان ولدَه على بره}[209]، وقال أيضا: {بروا آباءكم تبركم أبناؤكم}[210].

ويحرم عقوق الوالدين، ويعد ذلك من أكبر الكبائر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: {ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس وقال: ألا وشهادة الزور، يكررها حتى قلنا ليته سكت}[211]، وقال أيضا: {كل الذنوب يؤخر الله تعالى ما شاء

---

[206]- أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو

[207]- أخرجه الترمذي وابن حبان عن عبد الله بن عمرو

[208]- المصدر مجموع فتاوى ابن باز عن أبي اسيد الساعدى

[209]- المصدر الإحياء اسناده ضعيف عن عبد الله بن عمرو

[210]- أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر

[211]- أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك

منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات}[212]، وفي الحديث: {ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال، والديوث، هو الذي لا يبالي بمن دخل على زوجته ومحارمه}[213]، بل ربما يكون واسطة بينها وبين الأجانب، وقيل في الحديث: {من فضل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرفا ولا عدلا، إلا أن يتوب إلى الله عز وجل، ويحسن إليها، ويطلب رضاها}[214]، رواه أحمد، وغير هذه الأحاديث التي تدل على بر الوالدين.

لا تهمل النظر في الحرام أمسك لسانك عن الكلام

وطلب منك رضي الله عنه ألا تهمل نظرك في الحرام، الإهمال ترك النظر سدى بدون رعاية، عليك أن تحفظ عينيك من النظر فيما لا يحل لك النظر إليه، فيجب غضه عن النظر النظر إلى النساء على وجه الالتذاذ، ومن المحرم النظر في عورات الناس وعيوبهم، وكذلك النظر إلى المسلم بعين الاحتقار والازدراء، قال تعالى:﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[209].

العين نعمة عظيمة من الله على عبده، وقد خلقها الله له لينظر بها في عجائب مصنوعاته في أرضه وسماواته، فيزداد بذلك معرفة ويقينا بربه، وطاعة وخدمة له، وليهتدي بها في الظلمات، ويستعين بها على الحاجات، فإن استعملها فيما خلقت له كان من المطيعين الشاكرين، وإن أطلقها وأرسلها فيما حرم الله عليه فقد عصى، وتعرض للعقاب، لأن الله أمرنا أن

---

209 - سورة الإسراء: 36

212- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير
213- أخرجه البزار في الأحكام الشرعية الكبرى
214- رواه أحمد

نغض أبصارنا في قوله:﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾[210].

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: { النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها مخافة من الله أعطاه الله عبادة سبعين صديقا}[215].

وقال رضي الله عنه: «أمسك لسانك عن الكلام»، يعني أكثر الصمت، وفي الحديث:{ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه}[216]، اللسان من أعظم نعم الله على عباده، فيه نفع كثير لمن حفظه واستعمله فيما خلق له، وفيه شر كثير وضرر عظيم لمن أضاعه واستعمله في غير ما خلق له، وقد خلقه الله تعالى للعبد ليكثر به من ذكره، وتلاوة كتابه، ولينصح به عباده، ويدعوهم به إلى طاعته، وليظهر به ما في ضميره من حاجات دينه ودنياه، فإن استعمله بذلك كان من الشاكرين، وإن استعمله بخلاف ما خلق له كان من الظالمين المتعدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت}[217].

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم حين سأله عقبة بن عامر: ما النجاة؟ قال: {أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك}[218]، وقال أيضا: {من يتكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه أتكفل له الجنة}[219]، وقال أيضا: {من وُقي شر قَبْقَبِه، وذَبذَبه ولَقلَقِه فقد وُقي الشر كلهن}[220] القبقب هو البطن، والذبذب هو الفرج، اللقلق هو اللسان، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق.

---

[210] - سورة النور: 30

[215]- أخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود
[216]- أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة
[217]- متفق عليه عن أبي هريرة
[218]- أخرجه الترمذي
[219]-أخرجه البخاري والترمذي بسند حسن صحيح غريب
[220]- أخرجه البيهقي المصدر الإحياء

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضـــوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من ســخط الله ما يظن أن يبلغ ما بلغت يكتب الله له بها في النار سخطه إلى يوم يلقاه}[221].

وقال أيضـــا: { كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ذكر الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر}[222]، خطر اللســـان عظيم، وأمره مخوف، ولا يُنجي منه إلا الصـــمت، وترك النطق إلا عند الحاجة بقدرها، ويكون له في تلاوة كتاب الله، وفي الإكثار من ذكر الله شغل شاغل عن الخوض في الباطل، وفيما لا يعنيه من الكلام، وفي الحديث: {إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللســان، أي تقول: اتق الله فينا، فإنك إن اســتقمت اســتقمنا، وإن اعوججت اعوججنا}[223]، وقال أيضـا: { ألا أخبركم بأيسـر العبادة وأصـونها على البدن: الصمت، وحسن الخلق}[224]، رحم الله من قال:

منع اللســـان من الكلام لأنه هدف البلاء وجالب الآفات

فإذا نطقت فكن لربك ذاكرا لا تنســـه واحمده في الحالات

* * *

وَاجْتَنِبِ الرِّيَاءَ وَالتَّكَبُّرَا والحَسَـــدَ الحِقْدَ تَكُنْ مُكَبَّرَا

ذكر رضي الله عنه في هذا البيت أمراض القلب، ويطلب أن تجتنب هذه

[221]- أخرجه ابن عساكر

[222]- أخرجه الترمذي وابن ماجه

[223]- أخرجه الترمذي وأحمد بسند موقوف

[224]- مرسل عن صفوان بن سليم

الأمراض الفتاكة، منها الرياء: وهو طلب المنزلة، والتعظيم عند الناس بعمل الآخرة، كالذي يصلي ويصوم ويتصدق ويجاهد ويقرأ القرآن ليعظمه الناس لذلك، ويكرموه أو يعطوه من أموالهم، فذلك هو المرائي، وعمله مردود، وسعيه خائب، وصاحبه ممقوت عند الله، وتشهد لذلك الآيات والأخبار والآثار، منها قوله تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون﴾[211]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { لا يقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء}[225]، والرياء من محبطات العمل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة: يا فاجر، يا غادر، يا مرائي، ضل عملك، وحبط أجرك، اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له}[226]، وقال تعالى: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بربه أحدا﴾[212]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { يقول الله تعال: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، ونصيبي لشريكي}[227]، وقال النبي صلى الله عليه و سلم { من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساء الصلاة حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه تبارك وتعالى}[228].

فعلى المؤمن أن يجتهد في دفع الرياء عن نفسه، وألا يكون نيته ولا قصده في جميع طاعاته وعباداته إلا التقرب إلى الله، وطلب ثواب الآخرة، فبذلك يخلص من الرياء، ويسلم من شره وبليته إن شاء الله، ومهما خاف الإنسان على نفسه الرياء فليخف أعماله ويفعلها في السر حيث لا يطّلع عليه الناس.

---

[211] - سورة الماعون: 4-6

[212] - سورة الكهف: 110

[225]- لم أجد له اسنادا

[226]- لم أجد له اسنادا

[227]- في صحيح مسلم عن أبي هريرة

[228]- أخرجه عبد الرزاق في المصنف

وطلب منك رضي الله عنه أن تجتنب التكبر لأنه مرض من أمراض القلب، فمن تعاظم في نفسه، وأعجب بها، واحتقر الناس، واستصغرهم فهو المتكبر الممقوت.

التكبر إنما يكون في القلب، ولكن هناك علامات ظاهرة تدل عليه، فمنها حب التقدم على الناس، وإظهار الترفع عليهم، وحب التصدر في المجالس والتبختر والاختيال في المشي، والاستنكاف من أن يرد عليه كلامه وإن كان باطلا، والامتناع من قبول الحق، والاستخفاف بضعفة المسلمين ومساكينهم، التكبر من صفات الشياطين كما قال تعالى في إبليس اللعين: ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾، والمتكبر بغيض عند الله تعالى، ومصير المتكبر هو النار، قال تعالى في الحديث القدسي: {الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار}[229] و قال تعالى ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ }[230].

اعلم أن الخير كله في التواضع والخشوع والخضوع لله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله}[231].

وقال بعضهم

إِنَّ التَّوَاضُعَ مِنْ خِصَالِ الْمُتَّقِي ** وَبِهِ التَّقِيُّ إلى الْمَعَالي يَرْتَقِي

---

[229]- أخرجه أبو داود عن أبي هريرة

[230]- أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود

[231]- أخرجه أبو نعيم عن عمر بن الخطاب

وَمِنَ الْعَجَائِبِ عُجْبُ مَنْ هُوَ جَاهِلٌ ** فِي حَالِهِ أَهُوَ السَّعِيدُ أَمْ الشَّقِي

أَمْ كَيْفَ يُخْتَمُ عُمْرُه أَوْ رُوحُهُ ** يَوْمَ النَّوَى مُتَسفل أَوْ مُرْتَقِي

وَالْكِبْرِيَاءِ لِرَبِّنَا صِفَةٌ لَهُ ** مَخْصُوصَةٌ فَتَجَنَّبَهَا وَاتَّقِي

وحذرك رضي الله عنه أيضا الحسد لأنه من أمراض القلوب الخطيرة، والحسد هو أن يجد الإنسان في صدره وقلبه ضيقا وحرجا وكراهية لنعمة أنعم الله بها على عبد من عباده في دينه أو دنياه حتى تمنى زوالها عنه، فمن وجد شيئا في نفسه من هذا لأحد من المسلمين فعليه أن يكرهه ويخفيه في نفسه ولا يظهره بقول ولا فعل، وقال الناظم رضي الله عنه في كتابه هادية المذنبين: « الحسد حرام كالميتة، فمتى سرك مصيبة مسلم أو حزنتك نعمة أصابته فأنت حسود بالحقيقة لا محالة»، ودواء الحسد أن تعلم أن الله هو الذي أعطاه هذه النعمة، وعليك أن تتوجه إليه، وتطلب منه مثل ذلك أو أكثر، ولله خزائن السموات والأرض، فلعلك تنجو من شر الحسد، وفي الحديث: { ثلاث لا يخلو منهن أحد: الحسد، والظن، والطيرة، أفلا أنبئكم بالمخرج من ذلك؟ إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض}[232]، أي لا ترجع بسبب التطير عن الأمر الذي تريده.

[232]- في الإحياء عن أبي هريرة

و من أنفع الأدوية في إزالة الحسد وتضعيفه تهنئة المحسود فيما أعطاه الله وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال و الخلق فلينظر الى من هو أسفل منه}[233]، فحسبك بالحسد ذما وقبحا أن الله تعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باستعاذة من شر الحاسد، كما أمره بالاستعاذة من شر الشيطان، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب}[234]، وقيل: {لا يجتمع في جوف العبد الإيمان والحسد}.وروي عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا}[235] والحسد هنا بمعنى الغبطة وهي ان يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعم من غير أن يتمنى زوالها عنه,

ويحذرنا رضي الله عنه من الحقد والعداوة، والحقد بغض ثابت يجده العبد لأحد المسلمين، الحقد حرام إلا في وجه واحد، وهو أن يحقد العبد مسلما ويعاديه على فعل مذموم أصر عليه زاجرا له، فإن حلت عقدة الإصرار عن الفعل المذموم وتاب عنه فلا وجه للحقد والعداوة بعد توبته، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا}[236].

فإذا أردت السلامة من هذه المصيبة فأنزل المسلمين كلهم منزلة أبناءك، فإن قتل أحدهم الآخر أحزنتك مصيبة المقتول، وفعل القاتل،

---

[233]- في صحيح البخاري عن أبي هريرة

[234]- في سنن أبي داود عن أبي هريرة

[235]- في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود

[236]- في صحيح البخاري عن أنس بن مالك

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه}[237].

وقال رضي الله عنه: إذا تجنبت هذه العلل تكن مكبرا ومُعظّما عند الله وعند الناس.

لا تدم الشبع في الحلال إياك والحرام ذا النكال

وطلب منك رضي الله عنه ألا تدوم الشبع في الحلال، الشبع هو المبالغة في الأكل، فإن الإكثار من الأكل والشرب من أعظم المهلكات، وأعضل الآفات في الدين والدنيا، وقيل: {لا ينظر الله إلى جوف ملئ من الطعام}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أكثركم ريا في الدنيا أكثركم عطشا يوم القيامة، وأكثركم شبعا في الدنيا أكثركم جوعا يوم القيامة}[238].

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أسرع حسابا يوم القيامة؟ قال: {الذي إذا قال لأهله اسقوني لم يسألوه من أي شراب نسقيك، وإذا استطعمتم لم يسألوه من أي طعام نطعمك، وإذا استكساهم لم يقولوا: أي ثيابك نبعث إليك؟}[239] وقال أيضا: {المكثرون في الدنيا هو المقلون يوم القيامة}[240]، وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة، والجوع يُميت الهوى، ويصفي الفؤاد، ويورث فهم دقائق العلوم التي بها يبلغ العبد المراد.

---

[237]- متفق عليه عن أنس بن مالك

[238]- أخرجه الألباني في الضعيف الجامع

[239]- في كتاب الدرة الخريدة

[240]- أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر

الإمام البخاري رضـي الله عنه يأكل كل يوم تمرة أو لوزتين ورعا وحياء من الله تعالى في تردده إلى الخلاء، وكان لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثة أيام مرة واحدة، ويقول: والله قد استحييت من كثرة ترددي للخلاء.

وفي الحديث: { إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع}[241]، وقال أيضـا: {أحبكم إلى الله أقلكم طعاما، وأخفكم بدنا}[242]، وفي الجامع الصغير: {أخشى ما أخشى على أمتي كبر البطن، ومداومة النوم والكسـل، وضـعف اليقين}[243]، وفيه أيضـا: {خففوا بطونكم وظهوركم للصـلاة}[244]، وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: {جاهدوا أنفسـكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سـبيل الله}[245]، وأنه ليس من عمـل أحـب إلى الله من جوع وعطش، وهـذا في الحلال، وكيف الشـبع في الحرام، ولذلك قال رضـي الله عنه: «إياك»، أي أحذرك الحرام، إن أكل الحرام، ذا النكال أي صـاحب عذاب في الدنيا والآخرة، وفي الدنيا الأمراض، وفي الآخرة العـذاب الـدائم، وأكل الحرام يحبط الأعمـال، وقـال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، واعملوا صالحا﴾، وعن ابن عباس رضـي الله عنهما عن النبي صـلى الله عليه وسـلم: { إن لله ملكا على بيت المقدس ينادي كل يوم: من أكل حراما لم يقبل الله منه صـلاته مادام عليه من شيء}[246]، وقال أيضـا:{ كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به}[247]، وقال أيضـا: {من لم يبـال من أين اكتسـب المـال لم يبـال الله من أين أدخلـه النار}[248]، وقال أيضـا: {من أصـاب مالا من مأثم فوصـل به رحمه وتصـدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه في النار}[249].

---

[245]- أخرجه الغزالي في الإحياء

[246]- السبكي في طبقات الشافعية الكبرى

[247]- لم أجد له اسنادا

[248]- السبكي في طبقات الشافعية الكبرى

[249]- أخرجه أبو داود في المراسيل

وقيل: ليس من يأكل وهو يبكي مثل من يأكل وهو يضحك، إن أكل الحلال ينور القلب ويرققه، ويجب له الخشية من الله، وينشط الجوارح للعبادة والطاعة، وهو سبب في قبول أعمال الطاعة، واستجابة الدعاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: { أطب طُعمتك تستجب دعوتك}[251].

وأما أكل الحرام فصاحبه على الضد من جميع هذه الخيرات، وهو سبب في عدم قبول الأعمال الصالحة ورد الدعاء كما في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له}[252]

فاحرصوا على أكل الحلال، وعلى اجتناب الحرام كل الحرص، وقد قال بعض السلف رحمهم الله: الرجال ثلاثة: رجل شغله ميعاده عن معاشه، فهذا من الفائزين، ورجل شغله معاشه لميعاده فهذا من المقتصدين، ورجل شغله معاشه عن ميعاده هذا من الظالمين.

إساءة الظن بعبد الله تبطل ما تعمله يا لاهي

وهو رضي الله عنه ينهانا عن إساءة الظن بعباد الله لأن سوء الظن بالمسلمين مذموم قبيح، تبطل ما تعمله من خير، وقوله: «يا لاهي»، اسم الفاعل من لهى يلهو لهوا، لاهى بمعنى لاعب، لأن القلب المطهر من السوء لا يظن في الناس إلا خيرا، وقال بعض الصالحين: لا يكمل إيمان المؤمن

[250]- أخرجه الغزالي عن العراقي

[251]- في الإحياء عن عبد الله بن عباس

[252]- أخرجه مسلم عن أبي هريرة

حتى لا يصير يرى لأحد في الوجود عورة لا ظاهرة ولا باطنة، فلا ينظر إلا محاسن الوجود، ومادام يرى للناس العورات فالواجب عليه أن يربي نفسه على يد شيخ عارف يصفيه من كدرات البشرية حتى يُلحقه بالملائكة والمحفوظين من الأولياء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: سوء الظن بالله، وسوء الظن بعباد الله}[253].

ومعنى سوء الظن بالمسلمين أن تظن بهم السوء في أقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الخير، وتظن بهم خلاف ما يظهرون، قال تعالى:﴿ إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا﴾[213].

وسوء الظن بالمسلمين يبطل العمل، لأنه من محبطات العمل.

اجتنبوا الغيبة يا إخواني كذا النميمة مع البهتاني

ويحذرك رضي الله عنه عن الغيبة، وهو أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه لأساءه، سواء ذكره بنقص في بدنه أو نسبه أو خلقه، أو في دينه، أو في دنياه حتى في ثوبه وداره وابنه، قال تعالى:﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾[214].

فشبه الله المغتاب بأكل لحم أخيه المسلم ميتا، والغيبة من أعظم آفات اللسان، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {من أكل لحم أخيه في الدنيا قرّب إليه لحمه في الآخرة وقيل: كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله}[254]، وروى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: {كفارة من اغتبته أن تستغفر له}[255]، وقال: أبو المواهب الشاذلي يقول: رأيت النبي صلى الله عليه

---

213 - سورة الحجرات: 12

214 - سورة الحجرات: 12

253- في كتاب الدرة الخريدة

254- أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني باختلاف يسير

255- أخرجه ابن أبي الدنيا والحارث في المسند

وسلم في المنام فقلت: يا رسول الله ما كفارة الغيبة إذا لم تبلغ صاحبها؟ فقال: كفارتها أن تقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين، وتهدي ثواب ذلك في صحائف من اغتبته، والله غفور رحيم.

وكذلك طلب منك أن تجتنب النميمة هي نقل الكلام للغير على وجه الإفساد، وإفشاء العداوة والشحناء، قال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم﴾[215]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا يدخل الجنة قتات وهو النمام}[256]، وقال أيضا: { شرار عباد الله المشّاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة}[257]، وقال أيضا: { لا يدخل الجنة قاطع، قيل: ما القاطع؟ قال: قاطع بين الناس وهو النمام}[258]، وكذلك حذرك رضي الله عنه البهتان، هو الكذب، أي الإخبار بغير الواقع، وإثم الكذب عظيم، وهو مناقض للإيمان، وصاحبه متعرض بسببه لعنة الرحمن، قال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾[216]، وقال أيضا: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾[217].

خير عباد الله عند الله أشفقهم على ضعيف واهي

يعني أن خير عباد الله أشفقهم لعباد الله، وفي الحديث: { الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعيال الله}[259]، الشفقة هي الرحمة، وعدم الشفقة يدل على قساوة القلب، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {ارحموا

---

215 - سورة القلم: 10-11
216 - سورة النحل: 105
217 - سورة الأحزاب: 58

256- متفق عليه
257- في الإحياء عن أسماء بنت يزيد
258- أخرجه البزار والطبراني عن أنس بن مالك
259- أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو

من في الأرض يرحمكم من في السماء}[260]،ارحم ترحم، وقال أيضا: { إنما يرحم الله من عباده الرحماء}.

ومن لم يجد في قلبه رحمة وشفقة على المسلمين لاسيما على أهل المصائب والبلايا وأهل الضعف والمسكنة فذلك علامة تدل على قساوة قلبه وضعف إيمانه.

والرحمة بالمسلمين أمر واجب، وحق لازم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن أبدال أمتي لا يدخلون الجنة بكثرة صلاة ولا صيام، بل بسلامة الصدر، وسخاوة النفوس، والرحمة بكل مسلم}[261].

ومن لم يجد في قلبه عند مشاهدة ضعفاء المسلمين وأهل البلاء رقة ورحمة فهو غليظ القلب،﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾وقوله «واهي»، نعت الضعيف من وهى يهي أي ضعيف.

رم اصطحاب كل شخص مهتدي إن القرين بالقرين مقتدي

«رم» فعل أمر من رام يروم، أي اطلب، اصطحاب، أي مصاحبة كل شخص مهتد إلى صراط مستقيم، أي حاول أن تصاحب كل شخص صالح، وأن تتجنب أن تصاحب الطالح، لأن القرين بالقرين يقتدي

عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينهُ * * فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ يَقتَدي

و صحبة الأخيار أصل كبير في طريق القوم وأما صحبة الأشرار ففيها كبير اللوم لما فيها من عظيم الآفات الموجبة إلى الرجوع القهقري، والانحطاط

---

[260]- في صحيح البخاري عن أسماة بن زيد

[261]- أخرجه الألباني في ضعيف الجامع

من كل الدرجات، وعلى العبد أن يتجنب من يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا، وأن يرغب فيمن ينتفع بمجالسته فيهما، فالصالح إن لم تنتفع بأقواله انتفعت بأحواله وأفعاله، فإن النظر إليه يورث السرور في القلب كالنظر إلى الماء الجاري والخضرة والجمال، بل هو أقوى من ذلك كله، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة}[262].

وقيل: ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، ولا فسد من فسد إلا بصحبة من فسد، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:{ المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل}[263] و قال أيضا صلى الله عليه و سلم { مَنْ تَشَبَّه بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ}[264].

وعلينا أن نبحث عن ذوي الخلق والدين، ونصاحب من كملت مروءته، وصلحت عقيدتهم، إن قرين السوء ورفيق الشر شيطان على صورة إنسان، يريد أن يصدك عن طريق الخير، ويهديك إلى سوء الجحيم، ويوم يقوم الناس يقول لك رفيق السوء:﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾، ويقال لهم:﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾.

وأن من أعظم نعم الله على العبد أن يوفقه الله لصحبة الأخيار، ومن عقوبة الله لعبده أن يبتليه بصحبة الأشرار، فصحبة الأشرار تقذفه في

---

[262]- متفق عليه عن أبي موسى الأشعري

[263]- أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة

[264]- ضعيف عن جابر بن عبد الله

أسفل السافلين، وعلامة الجليس الصالح استقامته على طاعة مولاه، ومحافظته على ما فرض الله عليه، واتصافه بمكارم الأخلاق، وكف شره عن الناس، وابتعاده عن المعاصي، وعلامة جليس السوء استخفافه بالواجبات الدينية، وارتكابه ما حرم الله عليه، وتعرضه لعباد الله وأذيته لهم بلسانه ويده فاحذروهم وحذروا من تحت أيديكم منهم كأولادكم وأزواجكم.

تمر الايام كذا الشهور وأنت في الغفلة يا مغرور

والمعنى: الأيام تمر، والشهور والسنوات، وأنت لا تتعظ بذلك، لأن مرور الأيام والشهور يؤذن بانقضاء الأعمار، وقرب الأجل، وكل شهر يستهله الإنسان فإنه يدنيه من أجله، وقربه من آخرته، وقال بعض الحكماء: كيف يفرح مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح مَن عمره يقوده إلى أجله، وحياته تقوده إلى موته، وعليك أن تطلب الزاد لدار البقاء، ولكن أنت في غفلة، والقلب الغافل هو الذي لا يستيقظ ولا ينتبه إذا وردت عليه المواعظ والزواجر، ولا يلتفت إليها من غفلته وسهوه واشتغاله بلعبه ولهوه وزخاريف دنياه واتباع هواه، قال تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو الآصال، ولا تكن من الغافلين﴾[218].

«يا مغرور»، أي مخدوع بغير موجود، إن المغرور يظن أنه سيعمر طويلا، وقال عليّ رضي الله عنه: أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ومن

[218] - سورة الأعراف: 205

نسي الآخرة لم يعمل لها، ومن لم يعمل لها قدم لها، وهو مفلس من الأعمال الصالحة التي لا نجاة ولا فوز في الآخرة بدونها، فإن طلب عند ذلك أن يرد إلى الدنيا ليعمل صالحا حيل بينه وبين ذلك فيعظم عند ذلك حسره وندمه حيث لا ينفع الندم.

نهاكم الله عن التدبير والاختيار فهو ذو التقدير

وقال رضي الله عنه: إن الله نهانا عن التدبير والاختيار، بل وعلى العبد أن يفوض الأمور إلى الله، وهو الذي يدبر الأشياء، وأن الأمور كلها بيد الله، وفي قبضته، وأنه لا ضار ولا نافع ولا معطي غير الله، وعلى العبد التسليم وطمأنينة القلب وسكونه إلى وعد الله وضمانه حتى لا يضطرب، ولا يتزلزل عند ورود الشدائد، وحتى لا يفزع ولا يرجع في المهمات والملمات إلا إلى الله تعالى، لأن الله هو صاحب التقدير والتدبير، ويجب على العبد أن يرضى بقضاء الله، ويترك الاختيار بيد الله فيما دبر وأمضى، والسكون تحت مجاري الأقدار فمهما قضى عليه الله سبحانه بما يخالف هواه وبما لا تشتهيه نفسه من مصيبة في نفسه أو ماله، أو بلية أو شدة أو فاقة، فعليه أن يرضى بذلك ولا يجزع، فإن الله تعالى له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وليس له في سلطانه منازع ولا معارض، وهناك بعض الجهال إذا أصابهم مصيبة يقولون: أي شيء فعلته تحتك يا رب حتى فعلت بي هذا من دون الناس، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب}[265]، أي أن المؤمن إذا تذكر

[265]- أخرجه الدارمى والطبراني اسناده صحيح

ما أصيب به من فقد النبي صلى الله عليه وسلم هانت عليه جميع المصائب واضمحلت، ولم يبق لها خطر ولا بال، ومن أصيب وصبر واحتسب

جوزي أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة و أولئك هم المهتدون﴾،

يا فوز قائم بأمر الله ونهيه مستسلم لله

يعني أن من قام بأمر الله وتجنب ما نهاه عنه يجد مراده، ويفوز بمطلبه، التقوى هو سعادة الدارين، ومصدر كل خير، وأصل كل صلاح، وقال تعالى:﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾[219].

وقد علق الله على التقوى خيرات كثيرة عاجلة وآجلة، وقد جاء في القرآن ما يدل على أن حصول السعادة والحياة الطيبة في هذه الدنيا إنما هو لأهل الإيمان مع ما يدخره الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم، والثواب الجسيم، فتكمل لهم السعادتان دنيا وأخرى، يقول سبحانه وتعالى:﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى و هو مومن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾.

يجب على المسلم أن يتجنب المحرمات عموما، ويتقي الوقوع فيها، وقوله: «مستسلم لله»، أي أسلم لأمر الله، كلما أمره الله فعله، وكلما نهى عنه ترك، ويفعل ذلك تعبدا، وعلى العبد الاجتهاد في طاعة الله تعالى، ومخالفة النفس والهوى، قال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾.

[219] - سورة الزمر: 61

لأن المؤمن عندما يسمع أوامر الله ورسوله يبادر للامتثال، قال تعالى:﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾[220]، أي لا يحل لمن يؤمن بالله أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن ينقاد لقضاء الله وإن خالف هواه، لأن قضاء الله خير له عاجلا وآجلا، وقد توعد الله الذين يخالفون أمر الله وأمر رسوله بعدما يبلغهم، فقال تعالى:﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[221].

أكرم بعبد مخلص أواب من غير إعراض عن التواب

«أكرم» فعل التعجب، يعني أن الله يكرم العبد المخلص في أعماله إذ فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لا ثمرة له في الآخرة، الإخلاص هو إخراج الخلق في معاملة الحق، أو إفراد الحق تعالى في الطاعة بالقصد، أو غيبة القلب عن غير الرب حتى يكون العمل بالله ومن الله وإلى الله، غائبا عما سواه قال بعضهم

ولوْ خطرتْ لي في سواك إرادةٌ على خاطري يوما حكمتُ بردَّتي

، ويقصد العبد بقوله وعمله وجه الله، وابتغاء مرضاته من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب، ولا تعمل شيئا من الطاعات إلا أن يكون تأويلها التقرب إلى الله، وطلب رضاه، ولا يدخل في شيء من المباحات حتى الأكل والشرب والنوم إلا وقصد بذلك الاستعانة على طاعة الله، فبذلك صارت المباحات طاعة له، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {إنما الأعمال بالنيات،

220 - سورة الأحزاب: 36
221 - سورة الفرقان: 63

وإنما لكل امرئ ما نوى}[266]، وقال أيضا: { نية المؤمن أبلغ من عمله}[267]، وذلك لأن النية عمل القلب، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله خير من عملها، وأعمال الجوارح بدون النية لا نفع لها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{ من همّ بحسنة ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة}[268].

وروي أن رجلا من بني إسرائيل مرّ في وقت مجاعة على كثبان من رمل فقال في نفسه: لو كانت هذه طعاما وكان لي لقسمته على الناس، أوحى الله إلى نبيهم قل لفلان قد قبل الله صدقتك، وشكر الله حسن نيتك.

والمأثور أن الملائكة إذا صعدوا بصحيفة العبد إلى الله تعالى يقول لهم: اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: إنه لم يعمله، فيقول تعالى: إنه نواه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {طوبى للمخلصين الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك هم مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء}[269].

وقوله: «أواب» نعت لعبد من آب يؤوب أوبا، أي كثير الرجوع إلى الله عن كل فعل قبيح إلى فعل مليح، وقال تعالى: ﴿ نعم العبد إنه أواب﴾[222]، الإعراض ضد الإقبال، التواب هو اسم من أسماء الله تعالى الذي يقبل التوبة.

ليس له تعلق بالغير لا طمعٌ في السر أو في الجهر

[222] ـ سورة ص: 30

[266]ـ في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب
[267]ـ أخرجه البيهقي عن أنس بن مالك وإسناده ضعيف
[268]ـ متفق عليه عن عبد الله بن عباس
[269]ـ أخرجه الدمياطي بسند سقيم

يعني ليس لهذا العبد تعلق بالغير، وليس له في علمه أي باعث إلا وجه الله لا يطمع في السر والجهر إلى مخلوق، بل يتوكل على الله، وتكون له ثقة بالله حتى لا يعتمد على شيء سواه، ويتذكر الله في الشدة الرخاء، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:{ احفظ الله في الرخاء يحفظك في الشدة، احفظ الله تجده أمامك}[270].

يروى أن العبد إذا كان يذكر الله في الرخاء، ويعبده ويتضرع إليه ويناجيه فإذا أصابته فاقة أو بلية فدعا الله قالت الملائكة: إلهنا صوت معروف، فيقول: نعم أجيبوه حوائجه، وإذا كان العبد غافلا عن ربه فأصابته شدة أو بلية فدعا الله قالت الملائكة: إلهنا صوت مجهول، فيقول: ذروه فإنه نسينا في الرخاء فنسيناه.

إذا رأى معصية يجتنب موضعها جافي ولا يقترب

وهذا العبد المخلص إذا رأى المعصية هرب من مكانها « جافي» أي يبتعد قال تعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾، ولا يقترب من موضعها، لأن للمعاصي آثارا قبيحة، وعقوبات شنيعة، قال تعالى في بيان آثار المعاصي: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

لأن التقرب في المعاصي، وصحبة الأشرار تُورث الشر كالريح إذا مرت على النتن حملت نتنا، وإذا مرت على الطيب حملت طيبا، فإن المؤمن الصادق

[270]-أخرجه أحمد عن عبد الله بن عباس

هو الذي يعمل الصالحات ويخلص، ويرجو القبول والثواب من فضل الله، ويجانب السيئات، ويبتعد عنها انه كلما كان الإيمان أقوى، والعمل أصلح، كان الخوف أكثر، وكلما كان الإيمان أضعف والعمل أسوء كان الخوف أقل.

لأن صاحب المعصية إذا استمر عليها ولم يقلع عن ذنبه ومعصيته فإنه يخشى عليه من العقوبة العاجلة في هذه الدنيا مع ما يدخر له من العذاب والنكال في الآخرة، وأن عذاب الآخرة هو العذاب الأليم السرمدي، الذي لا نهاية له.

أكرم به يوم لقاء الله أكرم بعبد عابد أواه

يعني ما أكرم العبد المتصف بهذه الصفات عند لقاء ربه، أي عند وفاته أو يوم الجزاء، لأن الله سيجزيه أحسن الجزاء، ويحله في الجنات، قال تعالى:﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون، نزلا من غفور رحيم﴾[223].

وما أكرم بعبد عابد، أي دام على عبادة ربه وصبر على أداء الواجبات فقام بها على وجهها في أوقاتها، وحبس نفسه على مقارفة السيئات خوفا من الله، وتعبدا وامتثالا، وأمره سبحانه أن يعبده حتى يأتيه اليقين، «أواه» نعت لعبد، من أوه يتأوه تأوها أي كثير الأنين خوفا من الله.

[223] - سورة فصلت: 30-32

جـزاؤه الـجـنـة والـريـحـان والحور والقصـور والرضـوان

يعني جزاء ذلك العبد الموصوف بهذه الصفات الجنة، والجنة مهما حاولنا أن نتخيل نعيم الجنة، لا يمكن أن نحيط به، ولا يمكن أن نتصورها، فهو فوق الخيال، وأبعد من التصور، وهل يمكن أن نقارن بين ما يصنعه الإنسان لنعيمه في الدينا وما يصنعه الله لنعيم عباده في الآخرة؟ قال تعالى:﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[224].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: {قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر}[271].

وقيل: في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وغصن من أغصانها يسير الراكب تحتها سبعين خريفا، وإذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب، وثمارها لا تنقطع شتاء ولا صيفا، بل أكلها مستمر أبدا}[272]، وقال تعالى: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾[225].

وفي الحديث: { إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة}[273]، وقال أيضا: { يؤتى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي خير منزل، فيقول: سل وتمن، يقول: يا رب ما أسل وما أتمنى إلا

---

224 ـ سورة السجدة: 17

225 ـ سورة الواقعة: 33

271ـ متفق عليه عن أبي هريرة

272ـ أخرجه ابن حبان عن أبي هريرة

273ـ أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر

أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة}[274].

وفي الحديث: {إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا}[275].

«الريحان» هو الريح الطيبة، قيل إن الله يبعث عليهم ريحا تدعى المثيرة تثير عليهم المسك الأبيض، فتدخل من تحت ثيابهم، وتخرجه في وجوههم وأشعارهم، «والحور» أي بيض العين، أو ضخام العيون، كأمثال اللؤلؤ المكنون، وصفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف لم تمسه الأيدي، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها – يعني الخمار – قال تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾[226]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء من بين المشرق والمغرب، وأنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك}[276].

وقال تعالى: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾[227]، أي رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البضة مما يلي القشرة، وقال تعالى: ﴿فيهن خيرات حسان﴾[228]، أي خير الأخلاق، حسان الوجوه، وسألت أم سلمة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم: { أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قلت: يا رسول الله، وبم ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عز وجل، ألبس الله

226 ـ سورة الرحمن: 58
227 ـ سورة الصافات: 49
228 ـ سورة الرحمن: 70

274ـ في صحيح مسلم عن أنس بن مالك
275ـ في صحيح مسلم عن أبي هريرة
276ـ أخرجه العراقي عن ابن سعيد الخدري

وجوهن النور، وأجسادهن بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهن الدر، وأمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبدا، ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا، ألا ونحن الراضيات ولا نسخط أبدا، طوبى لمن كنا له أو كان لنا قالت أم سلمة: يا رسول الله، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها منهم؟ قال: يا أم سلمة، إنها تخير فتختار أحسنهم خلقا، فيقول: أي ربي إن هذا كان أحسنهم معي خلقا في دار الدنيا فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة}[277].

و«القصور» جمع قصر، أي البناء والمنازل، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ومساكن طيبة في جنات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { قصر في الجنة من لؤلؤ بيضاء، فيها سبعون دارا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتا من زمرد خضراء، في كل بيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون، على كل فراش امرأة، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لونا من طعام، ويعطى المؤمن من القوة ما يأتي على ذلك كله في غداة واحدة}[278].

و«الرضوان» هو رؤية وجه الله تبارك وتعالى هو أكبر منزلة في الجنة، وفي الحديث أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: {يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا

---

[277]- أخرجه ابن الجوزي عن أم سلمة

[278]- عن أبي هريرة

أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: أي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا}[279]، وفي الحديث: { أول ما يسمعون منه سبحانه وتعالى أن يقول: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني، وصدقوا رسلي، واتبعوا أمري فسلوني فهذا يوم المزيد، فيتفق كلمتهم: ربنا أرنا ننظر إليك، فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب، ويتجلى لهم، فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى}[280]، وأكرم أهل الجنة منزلة من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[229]، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:{ إذ دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى: أتريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، أم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ فكشف الله الحجاب فما أعطوا أحب إليهم من النظر إلى ربهم}[281].

ليس له هم ولا أحزان فيها ولا غم ولا نقصان

يعني أن أهل الجنة ليس لهم فيها هم ولا حزن، ولا فيها نقصان ولا هرم، لأنهم يدخلون الجنة أبناء ثلاث وثلاثين جردا مردا بيضا، وهم على خلق آدم، ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع طولا، وأما النساء فيجعلهن الله عذرى عربا أترابا، أي على مثل واحد، متعاشقات متحببات، وفي الحديث {أن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء، وأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف ثيب، يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا}[282].

---

[229] ـ سورة القيامة: 23

[279]ـ أخرجه البزارر عن حذيفة بن اليمان
[280]ـ أخرجه البزار
[281]ـ في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان
[282]ـ أخرجه البزار

قـد نـال كـل الخير في الجنـان من دون مـا شـــك ولا بهتـان

«الجنان» بالكسـر جمع جنة، «ولا بهتان»، البهتان هو الكذب، يعني أن هذا العبد وجد كل الخير في الجنة، وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: { إن في الجنة ســوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشــمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حســنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حســنا وجمـالا، ويقول لهم أهلوهم: والله لقـد ازددتم حســنـا وجمـالا، فيقولون: أنتن والله لقـد ازددتم بعـدنـا حســنـا وجمـالا}[283]، إن الجنـة كلهـا أفراح ومباهج، وليس فيها منغصات ولا مكدرات، لا موت فيها ولا عدم، ولا كبر ولا هرم، ولا مرض فيها ولا ســقم، ولا بؤس فيها ولا نقم، وقال عليه الصــلاة والســلام: إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا : رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، فيقول: أتضحك بي وأنت الملك، قال الراوي: فقد رأيت رسـول الله صـلى الله عليه وســلم ضــحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة}[284].

[283]- متفق عليه عن عبد الله بن مسعود

[284]- متفق عليه عن عبد الله بن مسعود

رؤيـة رب الخـلـق في دار الـبـقـا أدركـهـا أنـعـم بـعـبـد ارتـقـى

يعني أن رؤية رب الخلق في دار البقاء أدركها العبد المتصف بهذي الصفات ، نعم العبدالذي ارتقى إلى ذلك المقام، إذ ليس كل من دخل الجنة يرى وجه رب العزة، والناس متفاوتون في ذلك، وفي الحديث: {أفضلهم منزلة من ينظر إلى الله عز وجل في كل يوم مرتين}[285].

وفي الخبر أن الله سبحانه وتعالى يبرز لخلقه، أي أهل الجنة يوم الجمعة في مكان لا يعلم سـعته وعرضـه وطوله إلا الله، ينادي مناد: يا أهل الجنة اخرجوا إلى دار المزيد، فيخرجون في كثبان من المسـك، ثم يوضـع العرش بين ظهراني الجنة، وبينه وبينهم الحجب، فيكون أول ما يسـمعون منه أن يقول: أين عبادي الذين أطاعون بالغيب ولم يروني، وصـدقوا رسـلي، واتبعوا أمري، فسـلوني، فهذا يوم المزيد، فتتفق كلمتهم: ربنا أرنا ننظر إليك، فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب، ويتجلى لهم، فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره.

يا فوز عبد نال كل ما اشـتهى دون تـخـلـف ونـال المـنـتـهى

يعني فاز عبد نال في الجنة كل ما اشـتهى، ونال المنتهى، والمنتهى هي رؤية الله سـبحانه وتعالى، وأهل الجنة يجدون فيها كل ما اشـتهت أنفسـهم مما يعلمون ومما لا يعلمون، لأن كلما اشتهيه العبد وتمناه سوف يجده في

[285]- أخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري

الجنة بفضل الله، وكل ما يتنعم به في الدنيا سيجد خيرا منه في جنة المأوى، وكل ما حرم منه في الدنيا سيتوفر له في جنات النعيم، قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون، نزلا من غفور رحيم﴾، وقال تعالى أيضا: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون﴾[230]، ولا يمكن أن نحيط بما فيها من النعيم.

وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل:{ أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرءوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾}[286].

أف لعبد الثوب والدينار والدار والدرهم والأغيار

«أف كلمة» تضجر وكراهية، يعني أكره عبدًا همه هو حصول الثوب والدينار والدار والدرهم، «الأغيار» جمع غير، أي التوجه إلى غير الله، قيل: تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، وتعس وانتكس في الدنيا الشاغلة عن طاعة الله تعالى المترتب عليها ضياع حقوق الله وحقوق العباد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: {تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة}[287].

230 - سورة الزخرف: 71

286- أخرجه الشيخان عن أبي هريرة

287- في صحيح البخاري عن أبي هريرة

إن الله سبحانه ذم الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب، ولا هم ينصرون﴾[231]، ومنها قوله: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾، إيثار الدنيا على الآخرة يظهر جليا على تصرفات الناس، والناس يزدحمون على أبواب المتاجر، ولا يزدحمون على أبواب المساجد، والناس يزدحمون على طلب الدنيا ولا يزدحمون على طلب العلم النافع، الناس يصبرون على تحمل المشاق الصعبة في طلب الدنيا، ولا يصبرون على أدنى مشقة في طاعة الله، الناس يغضبون إذا انتقص شيء من دنياهم، ولا يغضبون إذا انتقص شيء من دينهم، كثير من الناس لشدة حبه للدنيا لا يقنع بما أباح الله له من المكاسب، فيذهب يتعامل بالمعاملات المحرمة، والمكاسب الخبيثة، وكثير من الناس استولى عليه حب الدنيا وإيثارها على الآخرة حتى شغل كل أوقاته بجمعها، ولم يبق وقتا لآخرته.

وهذا العبد الموصوف بهذه الصفة هو الذي أقبل بقلبه على محبة الدنيا، والحرص على عمارتها، وجمع حُطامها، والاغترار بزخارفها وزينتها، والنظر إلى زهرتها التي نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن مد العين إليها، فقال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى﴾[232].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {أزهد الناس من لم ينس القبر والبلى، وترك أفضل زينة الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يُعد غدا من أيامه، وعد نفسه في الموتى}[288].

---

231 - سورة البقرة: 86

232 - سورة طه: 131

288- مرسل عن الضحاك بن سفيان الكلابي

صـــار أســـيرا لحـطـام الـدنـيـا والنفس والشـيطان بئس البغيا

يعني أن هذا العبد أصـبح أسـيرا لحطام الدنيا، الحطام بضـم الحاء، أي متاع الدنيا، وصـارت الدنيا أكبر همه، ومنتهى أمله، وأفنى عمره، وشـغل أوقاته، وأبلى جسـمه بجمعها، وهذه الدنيا لا تسـاوي عند الله جناح بعوضة، ومثلها في الآخرة كمثل ما يعلق بأصبع من أدخل أصبعه في البحر، وقيل أنها سـجن المؤمنن، وجنة الكافرين، وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وفي الخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وشـتت عليه شـمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، وهذا الأسـير غلبته النفس والشـيطان، وقيل: من لم يسلم من شر نفسه لم يصل إلى الله تعالى، لأنها تحول بينه وبين الوصول إليه.

والناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار مطيعا لها، وقسـم ظفِر بنفسـه، فقهرها حتى صـارت مطيعة له، وقد ذكر الله القسمين في قوله تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾.

والعبد إما أن يجيب داعي النفس فيهلك أو يجيب داعي الرب فينجو، والنفس تأمر بالشح وعدم الإنفاق في سبيل الله، والرب يدعو إلى الإنفاق في سبيله والحسنات، النفس من أكبر أعداء الإنسان، فمن لم يجاهد نفسه أولا لا يمكنه مجاهده عدوه الخارجي مع ترك العدو الداخلي، وبعد النفس يأتي عدوان هما الشيطان عدو بني آدم، وعدو البشرية جمعاء، وقد حذرنا

الله منه حيث قال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾، والشيطان قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس، وقد يكون من الدواب وهم يتعاونون على إهلاك بني آدم، وهو عدو خفي لا يراه الإنسان لأنه يجري منه مجرى الدم، قال تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾[233].

وما أكثر شياطين الإنس اليوم! فاحذروهم وجاهدوهم، وقوله: «بيس البغيا»، أي ساء ما طلبته واخترته من هذه الدنيا الفانية.

وحكي أن رجلا جمع مالا عظيما، ثم صنع يوما طعاما لأهله وقعد على سرير وهم بين يديه يأكلون وقد وضع رجلا على رجل، وهي جلسة المتكبرين والجبابرة، وأبناء الدنيا والتجار، وهو يقول لنفسه: تنعمي فقد جمعت لك ما يكفيك، فبينما هو كذلك إذ أقبل ملك الموت في زي المسكين فقرع الباب فخرج إليه بعض الغلمان فقالوا: ما حاجتك؟ فقال: ادعوا لي سيدكم، فانتهروه وقالوا: مثلك يخرج إليه سيدنا؟ قال: نعم، فجاءوا فأخبروا سيدهم بذلك فقال: هلا ضربتموه؟ فعادوا فقرع الباب قرعا شديدا فخرجوا إليه فقال: أخبروا سيدكم أني ملك الموت، فلما سمعوه وقع على الجميع الذل، ودخل ملك الموت عليه السلام عليه فأحضر ماله ونظر إليه تحسرا وتأسفا وقال: لعنك الله من مال، شغلتني عن عبادة ربي، فأنطق الله المال وقال: لم تسبني وقد كنت تدخل على الملوك بي، ترد المتقين، وقد كنت تنفقني في سبيل الشر، فلا أمتنع منك، ولو أنفقتني في سبيل الخير لنفعتك، ثم قبض روحه ملك الموت وانصرف.

ديدنه تمتع البهائم أكلا وشربا زد نكاح الهائم

---

[233] - سورة الأعراف: 27

«ديدنه» أي طبيعته وعادته، «الهائم» أي الحائر الذي لا عقل له، يعني أن هذا الإنسان الحائر عادته هي التمتع كتمتع «البهائم» جمع بهيمة أي حيوان، هدفه الأكل والشرب والجماع لا غير، وهذا شأن من عمت بصيرته، وانطمست سريرته، واشترى الضلالة بالهدى، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الادنى على الباقي، قال تعالى: ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾[234]، وقال أيضا: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهم الأمل فسوف يعلمون﴾[235].

وفي الجامع الصغير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين}[289]، وفيه أيضا:{ سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام، أولئك شرار أمتي}[290].

وعن الثوري: خصلتان يقسيان القلب: كثرة الشبع، وكثرة النوم، وكل من شغله معاشه عن معاده فهو ظالم وهالك.

قَرِينُهُ الْمَحْبُوبُ فِي الْأَنَامِ أَخُو الثَّرَاءِ ولومع الآثام

وهذا العبد الموصوف بهذه الصفة المتوجه إلى متاع الدنيا لا يكون صديقه ولا قرينه المفضل في الآنام إلا أصحاب الأموال والجاه، و«القرين» هو صاحب وصديق و«أخو الثراء» هو صاحب الغنى، «والآثام» جمع إثم أي معصية.

وهذه الصحبة يختارها مع الأغنياء ولو كانت في المعاصي، وبين لنا الله سبحانه وتعالى عاقبة جلساء السوء في قوله:﴿ ويوم يعض الظالم على

234 - سورة محمد: 12

235 - سورة الحجر: 3

289- أخرجه السيوطي عن معاذ بن جبل

290- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير

يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾.

ولو علم العبد ما في صحبة الأغنياء والأمراء من ضرر وفساد لاجتنب ذلك، ولو علم ما في صحبة الفقراء من خير لأكثر من مجالستهم، وفي الجامع الصغير: {ما ازداد رجل من السلطان قربا إلا ازداد عن الله بعدا، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه}[291].

لأن غالب مجالسهم شغل عن الله تعالى، وأكثر أموالهم حرام، وصحبة الفقراء سبب في تنزل الرحمة، لأن رحمة الله لا تفارقهم، لأنهم عيال الله، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة}[292]، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام}[293]، ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم: {اللهم أحيني مسكينا، وتوفني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين}[294].

وظن أن العز عند الله تحصيل أموال بلا تناه

وظن هذا الإنسان الموصوف بهذه الصفة أن العزة والكرامة في الدنيا والآخرة في كثرة الأموال، وبعضهم يقولون: السعيد هو الغني، وهذا القول خطأ، بل السعيد هو التقي، والمتقون هم أقرب إلى الله منزلة، وأعلى شأنا،

[291]- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير
[292]- أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد
[293]- عن أبي هريرة
[294]- عن عبد الله بن عمر

يقول الله سبحانه: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، التقوى هو الوصف الذي اختاره الله لخواص عباده، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس}[295]، هناك قوم يرون السعادة في سعة الرزق، وكثرة الأولاد، والجاه عند الناس، وعند آخرين أن السعادة في تحصيل الشهوات، سواء كانت مما هو مباح أو مما هو محرم، إلى غير ذلك من حظوظ الدنيا، والواقع أن هذا كله ليس بشيء، وإن حصل في بعضه راحة النفس في وقت قليل أو زمن قصير فآلامه ومكدراته ومنغصاته أكثر بكثير، ولكن السعادة الحقيقية هي سعادة القلب، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وهذا لا يحصل إلا بالإيمان بالله، والعمل الصالح، اقرأ سورة العصر، وقال عليه الصلاة والسلام: { من أحب أن يكون قويا فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون غنيا ليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه}[296].

ألجأه الجهل إلى احتقار سادت أهل الله والكبار

«ألجأه» فعل ماض رباعي من لجأ، أي دفع هذا المغرور، «الجهل» أي ضد العلم، «احتقار»: أي استخفاف حقوق أهل الله لجهل مراتبهم، لأن الله اختارهم وأحبهم، وعلى العاقل أن يحب من أحبه الله، لأنهم جليس الحق في قوله: أنا جليس من ذكرني، أي أنا معه، ومن كان الحق معه لا ينبغي لمن له دين أن يتعرض له بالأذى، أو ينوي له سوء في وقت من الأوقات، وهنا الأمر وإن كان واجبا في حق كل المسلمين فهو في حق الأولياء أوجب،

[295]- متفق عليه عن أبي هريرة

[296]- أخرجه البصيري عن عبد الله بن عباس

وما رأينا أحد قط آذى الفقراء والصالحين واحتقرهم ومات على صفة استقامة أبدا، وفي الحديث: { من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب}[297]، وإيذاء أولياء الله علامة على سوء الخاتمة كأكل الربا، لأن أولياء الله مقسطون متوكلون محسنون متقون، قال تعالى: ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾[236]، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾[237]، ﴿وأحسنوا إن الله مع المحسنين﴾[238].

كي لا ينال فضلهم للشقوة إذ قصده دنياه دون الصفوة

نفره الخذلان عن إكرام أهل الهداية بلا انفصام

يعني أن الله لم يقدر له حصول فضلهم لشقاوته، لأنهم عيال الله، ومن أكرمهم فقد أكرم الله، ومن أهانهم فقد آذن الله بالحرب، لأن الولي خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له، وعن حوله وقوته إلى حول الله وقوته بصدق التوكل على الله عز وجل، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، وقال أيضا: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾[239]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {من آذى مسلما فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يهلكه}[298].

لأن احتقار أهل الله هو احتقار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كان عدوا لله روسوله فقد كفر وهلك، أعاذنا الله من ذلك، «نفره» أي فر

236 ـ سورة الحجرات: 9
237 ـ سورة آل عمران: 159
238 ـ سورة البقرة: 195
239 ـ سورة الروم: 47

297ـ في صحيح البخاري عن أبي هريرة
298ـ أخرجه الطبراني بسند حسن

وجرى، «الخذلان» أي الترك، يعني أن هذا العبد منعه إكرام أهل الهداية لشقاوته.

ما خاب من أحب أهل الله ومعها خدمهم لله

يعني أن من أحب أهل الله لا يخيب ظنه أبدا، وحبهم هو حب الله ورسوله، لأنهم ورثة الأنبياء، وتعظيمهم يزيد الإيمان، قال النبي صلى الله عليه وسلم:{ ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه}[299]، فاحترام العلماء توفيق وهداية، وإهمالهم خذلان وعقوق، وإن صحبة الأخيار مؤثرة، وقد قيل: لقاء الإخوان لقاح، ولا شك أن يتلقح ويتقوى البعض بمجرد النظر إلى أهل الله، أهل الصلاح يؤثر صلاحا، والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبا للمنظور إليه كدوام النظر إلى المحزون يحزن، ودوام النظر إلى المسرور يسر، وقيل: من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه، العاقل لا يكتفي بالمحبة، بل يزيد فيها الخدمة لهم، فإذا خدمهم يكافئونه بالدعاء، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {استكثروا من الإخوان الأخيار، فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة}[300]، وقال أيضا: {استكثروا من الناس من دعاء الخير، فإن العبد لا يدري على لسان من يستجاب له أو يرحم}[301]، وقال أيضا: {أكثروا من الإخوان فإن الله حيي كريم، يستحيي أن يعذب أحدا بين إخوانه}[302].

وأهل الله هم القوم الذين اصطفاهم الحق لخدمته، وجعلهم أهلا لمناجاته وحضرته، وأشهدهم أنوار جماله وإحسانه، وأجلسهم على بساط كماله

---

[299]- أخرجه السيوطي عن عبادة بن الصامت

[300]- في الجامع الصغير عن أنس بن مالك بسند ضعيف

[301]- في الجامع الصغير عن أنس بن مالك بسند ضعيف

[302]- في كتاب الدرة الخريدة

وامتنانه، وهم القوم الذين شـربوا من محبته فطابوا، ومن خدمهم أكرمه الله، ولكن أهل الله في هذا الزمان وجودهم أعز من بيض رخمة، فلا يكاد يوجد، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم: {أقل ما يوجد في أمتي في آخر الزمان درهم حلال، وأخ يوثق به}[303].

وإذا وجدت أهل الله فلازمه ولا تفارقه، وتعلق به لأنهم نوّاب أنبياء الله ورسـله، وبهم أقام الله أمر العباد، وبهم يرزق كل مرزوق، وبهم يصـرف البلاء والعذاب عن الخلق، والحديث: {إن لله عبادا من نظر إليهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا}[304].

نسـأله بالفضـل أن يرزقنا محبة القوم كما أمرنا

ونسـأله أي الله أن يرزقنا محبة القوم، أي أهل الله – أولياء الله – وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن لقى في النار}[305]، وعلى العاقل أن يحب أهل الله لكي يكون معهم، لأن المرء يكون غدا مع من أحب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{ من أحب قوما حشر معهم}[306].

وفي هذا البيت يعلمنا رضي الله عنه أن نلازم الدعاء لأن الدعاء هو سلاح المؤمن، قال تعالى:﴿ ادعوني أستجب لكم﴾[240]، وقال أيضا: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾[241].

---

[240] - سورة غافر: 60
[241] - سورة البقرة: 186

[303]- في كتاب الدرة الخريدة
[304]- في نفس الكتاب
[305]- أخرجه الشيخان
[306]- رواه الحاكم في مستدرمه
أخرجه ابن عدى في الكامل والضعفاء

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {الدعاء مفتاح الرحمة، والوضوء مفتاح الصلاة، والصلاة مفتاح الجنة}[307].

ولكن على الإنسان أن يسأل الله وحده، لأنه هو القادر، وبيده الخير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله}[308]. فالدعاء نوع من أنواع العبادة، بل هو أساس العبادة لقوله صلى الله عليه وسلم: {الدعاء مخ العبادة}[309]. فالإنسان لا يقوم إلا بالمخ، كذلك فإن العبادة لا تقوم إلا بالدعاء، وفي الحديث القدسي: {يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب فاستغفروني أغفر لكم}[310].

اعلم أخي أن ليس للإنسان إلا الذي سعى من الإحسان

لا يحمل الإنسان من أوزار قريبه شيئا ولا الأصهار

أي اعلم يا أخي أن ليس للإنسان إلا الذي سعى، أي عمل من الإحسان، ولا يحمل الإنسان من أوزار قريبه أي ذنوب أقاربه شيئا ولا من أوزار الأصهار جمع صهر، وهو والد الزوج أو الزوجة، لأن الله يحاسب جميع حركات الإنسان وكلماته، ولا يترك شيئا، قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

---

[307]- أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس

[308]- في سنن الترمذي عن أنس بن مالك

[309]- أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري

[310]- أخرجه مسلم

وقيل: هناك موازين توزن بها الحسنات والسيئات، لا تترك مثقل ذرة، أي وزن ذرة من خير عمله الإنسان في الدنيا، ولا وزن ذرة من شر، فمن ثقلت موازين حسناته قد نجا من النار، ومن خفت موازينه فقد خسر خسرانا مبينا، أعاذنا الله من النار.

وقال تعالى:﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾.

صل الفرائض مع الخشوع رتل سجودك مع الركوع

أوجب ربنا إقامة الصلاة لا وجودها كما قد انجلاه

«صل» فعل أمر من صلى يصلي صلاة، «الفرائض» جمع فريضة، «مع الخشوع» أي الخوف والخضوع الكامل، «رتل» فعل أمر من رتل يرتل، أي رتب سجودك مع ركوعك، أي تكمل السجود والركوع، الله أوجب إقامة الصلاة في آيات قرآنية كثيرة، وقوله: لا وجودها، أي لا وجود الصلاة، لأنها موجودة قبل البعثة، كما انجلاه كما ظهر في قوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾[242]، والملائكة يصلون ويسبحون ربهم، وذلك دليل على وجود الصلاة قبل البعثة، والصلاة موجودة في كل الديانات السماوية، ولكن الصلاة على هيئتها الحالية فرضت بعد العروج، وصلاة هذه الأمة المحمدية جمعت جميع هيئات صلوات الأمم السالفة والملائكة عليهم صلوات الله، وبعض الأمم صلاتهم غدوة، وبعضهم عشية، والملائكة بعضهم قائم، وبعضهم ساجد، وبعضهم جالس، وبعضهم راكع.

[242] - سورة آل عمران: 43

والصلاة فرضت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسط ملك، لأن الله استدعى النبي صلى الله عليه وسلم عنده لأهمية الأمر، فعرض عليه الصلوات، الصلاة هدية القرب للقرب، ولذلك الصلاة تقربك من الحضرة الإلهية، الإسلام بني على خمس: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، هذه هي أركان الإسلام، ولكن ليست هي أركان المسلم، بمعنى أن المسلم قد يكون فقيرا فلا تجب عليه الزكاة ,المسلم قد يكون مريضا أو على سفر فلا يصوم، وقد لا يستطيع الحج، وأما الصلاة فلا تنفك عن المسلم أبدا حتى وهو في الحرب أو هو مريض، لذلك قيل: الصلاة عماد الدين، قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾[243].

والصلاة ركن من أركان الإسلام، وفريضة على المسلمين في أوقات وقتها رب العالمين لتذكر المؤمن ربه في كل حين، يقول الله عز وجل:﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾[244].

والصلاة هي العبادة والفريضة الوحيدة التي فرضها الله في السماء، وهي أول ما يحاسب عليه العبد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: {إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة}[311].

الصلاة دليل على إيمان مقيمها، قال صلى الله عليه وسلم: { إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان}[312]، قال الله عز وجل: ﴿إنما يعمر مساجد الله من ءامن بالله واليوم الآخر﴾[245].

الصلاة تكفر الذنوب، وفي الحديث: {أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، قال: ذلك

---

243 - سورة البقرة: 238
244 - سورة النساء: 103
245 - سورة التوبة: 18

311- أخرجه الترمذي عن أبي هريرة
312- أخرجه السيزطي عن أبي سعيد الخدري

مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا}[313]، والمحافظة على الصلاة توجب الجنة، قال تعالى: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك في جنات مكرمون﴾[246].

وعلى العاقل اللبيب أن يؤدي الصلاة بخشوع تام، وأن تكون عظمة الله حاضرة في قلبه، ولا يليق به أن يقابل ربه وخالقه ورازقه بقلب شارد، وعقل غائب، أو يجعل صلاته مجرد حركات جسمانية، ليس بها روح ولا طمأنينة، وروح الصلاة هو الخشوع، قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[247].

لذاك كملها بلا نقصان بالشرط والآداب والأركان

لذلك يجب على المسلم أن يأديها كاملة غير ناقصة مع شروطها وآدابها وأركانها، وشروطها الطهارة والاحتياط فيها في البدن والثوب والمكان، واستقبال القبلة، وستر العورة، وفي الحديث: { الطهور مفتاح الصلاة}[314]، وفي الجامع الصغير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { ألا أدُلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إصباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط}[315]،

إذن الوضوء من مكفرات الذنوب، وفي الرماح: قال عثمان بن عفان: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {لا يسبغ أحد الوضوء إلا غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر}[316].

---

246 ـ سورة القلم: 34-35

247 ـ سورة المؤمنون: 1

313ـ متفق عليه عن أبي هريرة

314ـ أخرجه السيوطي عن أبي هريرة

315ـ في صحيح مسلم عن أبي هريرة

316ـ أخرجه المنذري بسند حسن

والدوام على الوضوء مطلقا محبوب، وفيه منافع كثيرة، بلغنا أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: {إذا أصابتك مصيبة وأنت على غير طهارة فلا تلومن إلا نفسك}[317].

ومن أداء الصلاة كاملة المبادرة بأدائها في أول وقتها، وفي ذلك فضل عظيم، ودليل على محبة الله تعالى، وعلى المسارعة في مرضاته، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {الصلاة في أول الوقت رضوان الله، وآخره عفو الله، وأن العبد ليصلي الصلاة ولم يخرجها من وقتها، ولما فاته من الوقت خير له من الدنيا وما فيها}[318].

إن الصلاة عهد بيننا وبين الله، ومواقيت الصلاة مواعيد بيننا وبين الله كما نحرص على الحفاظ على مواعيدنا مع الناس، فالله أولى أن نحافظ على مواعيدنا معه، وليس هناك أهم من لقاء الله، وليس في الدنيا أعظم من ثواب الصلاة، ومغفرة الله، فاحرصوا على إقامة الصلوات في أوقاتها، وقبيح بالمؤمن أن يدخل عليه وقت الصلاة وهو على شغل من أشغال الدنيا فلا يتركه، ويقوم إلى فرضه الذي كتبه الله عليه فيؤديه، وليس هناك غفلة أعظم من ذلك، وقلة المعرفة بالله، وضعف الرغبة في الآخرة، لاسيما صلاة العصر، لأن من تركها إلى الغروب بغير عذر شرعي يحبط جميع أعماله، وفي الجامع الصغير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر حبط عمله}[319].

---

[317]- أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر

[318]- في كتاب الدرة الخريدة

[319]- أخرجه ابن حبان عن أبي هريرة

حـان مـمـاتـك وأنـت تـلـعـب مثـل مـنـافـق يصـــلي يـلـعـب

«حان مماتك» أي قرب وقت موتك، وأنت تلعب مثل المنافقين الذي عن صـــلاتهم ســـاهون، والمعنى على العبد أن يجتهد لأعمال الآخرة التي هي دار البقاء، وقد أخبر الله تعالى ورسوله أنه لا ينال الجنة بدون السعي والطلب والجد في ذلك، والتشـــمير لها، لأن الدنيا مزرعة للآخرة كما قال تعالى: ﴿وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

وقال عليه الصـــلاة والســـلام: {اعمل لدنياك كأنك لا تموت أبدا، واعمل لآخرتك كأنك ميت غدا}[320]، وعلى العاقل إذا قام إلى الصـــلاة أن يصـــلي صلاة مودع، وفي الحديث: {صل صلاة مودع، كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك}[321].

يـنـقـر في الصـــلاة نـقـر الـديـك مـا نـال غـيـر لـعـنـة المـلـيـك

النقر هو أكل الديك، والمعنى السرعة في الصلاة، ومن صلى بدون خضوع وخشـــوع لا يجد في صـــلاته إلا لعنة الله، وصـــلاته أيضـــا مردودة، وعلى الإنســان أن يتدبر ما يقرؤه من كلام ربه في صلاته، وأن لا يتعجل، فإنه لا تدبر مع العجلة، لأن الســـرعة تؤدي إلى ترك بعض الأركان كالطأنينة والاعتدال، وإذا ركعت أو سجدت فاطمئن، ولا تنقر في صلاتك نقر الديك فتبطل صـــلاتك، وتنالك لعنة الملك الجبار، وفي الحديث: { رأى الرســـول صلى الله عليه وسلم رجلا لا يطمئن في صلاته قال له: ارجع فصل فإنك لم

[320]- أخرجه الألباني بسند موقوف

[321]- أخرجه البيهقي في الزهد الكبير

تصـــل، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا علمني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أقمت في الصـــلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيســـر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، ثم افعل ذلك في صلواتك كلها}[322].

فاخشعوا أيها الأحبة في صلاتكم، واطمئنوا في ركوعكم وسجودكم وقياكم وتلاوتكم وتسبيحكم حتى تنالوا الأجر الكبير من صلاتكم.

ورد أن من حافظ على الصلاة وأتمها تخرج صلاته بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني، والذي لا يتم الصلاة تخرج صلاته سوداء مظلمة تقول: ضـيعك الله كما ضـيعتني، ثم تلف على الثوب الخلق فيضـرب بها وجهه.

نصـــوا بـأنـه كـإنســـان ملـك جـاريـة مـاتـت وأهـداهـا الملـك

وأشار رضي الله عنه في هذا البيت إلى قول الإمام الغزالي رضي الله عنه أن للصـــلاة صـــورة ظاهرة، وحقيقة باطنة، لا كمال للصـــلاة ولا تمام لها إلا بإقامتها جميعا، وقال في كتابه إحياء العلوم: مثل الذي يقيم صورة الصلاة الظاهرة ويغفل عن حقيقتها الباطنة كمثل الذي يهدي لملك عظيم وصيفة ميتة، لا روح فيها، ومثل الذي يقصّـر في إقامة ظاهرة الصـلاة كمثل الذي يهدي إلى الملك وصـيفة مقطوعة الأطراف، مفقودة العينين، فهو والذي قبله متعرضان من الملك بهديتهما للعقاب والنكال لاستهانتهما بالحرمة،

[322]- أخرجه البخاري عن أبي هريرة

واستخفافها لحق الملك، ثم قال: وأنت تهدي صلاتك إلى ربك فإياك أن تهديها بهذه الصفة، فتستوجب العقوبة، وفي الحديث: { ليس للعبد في صلاته إلا ما عقل منها، وأن المصلي قد يصلي الصلاة فلا يكتب له منها سدسها ولا عشرها}[323]، يعني أنه يكتب له منها القدر الذي كان فيه حاضرا وخاشعا له، وقد يقل ذلك وقد يكثر بحسب الغفلة والانتباه، فالحاضر الخاضع في جميع الصلاة تكتب له صلاته كلها، والغافل اللاهي في جميع صلاته لا يكتب له شيء مها، ولذلك قال رضي الله عنه:

وكن إذا دخلت في الصلاة كمثل شخص كان في الوفاة

يعني أيها العبد إذا دخلت في الصلاة ففرّغ قلبك من الدنيا وما فيها، وتؤديها بخشوع وخضوع وحضور قلب، وتدبر القراءة، وفهم معانيها، واستحضار الخضوع، والتواضع لله، وامتلاء القلب بتعظيم الله وتقديسه، ومجانبة الأفكار والخواطر الدنيوية، والإعراض عن حديث النفس، ويكون الهم والأفكار مقصورا في الصلاة ليعينك على إقامتها وتأديتها كما أمر الله، وتكون صلاتك صلاة مودع، أي كأنك إذا أكملت صلاتك تقبض روحك.

لم يك للفذِّ سوى الذي عقل من الصلاة دون ما كان غفل

ويحذرنا رضي الله عنه أن نصلي منفردين، بل يحضنا على صلاة الجماعة حتى نتعارف ونتشاور ونتضامن ونتعاون على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكواة، واركعوا مع الراكعين﴾[248].

[248] - سورة البقرة: 43

[323]- أخرجه السبكي في طبقات الشافعية الكبرى

ومن فضائل الصلاة في الجماعة أن الإمام يحمل نسياننا، ولذلك قال رضي الله عنه: «لم يك للفذ سوى الذي عقل» من الصلاة كما قيل في الحديث: {ليس للعبد في صلاته إلا ما عقل}[324].

وجدير بنا أن نحافظ على الصلاة مع الجماعة لأن فضائلها كثيرة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { من صلى أربعين يوما في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان، براءة من النار، وبراءة من النفاق}[325]، ولما شكا ابن أم مكتوم الأعمى إلى الرسول أنه لا قائد له، وذكر له ما بالمدينة يومئذ من الآبار والهوام، وبُعد منزلته عن المسجد ليعذره عن المجيء لصلاة الجماعة فعذره بعد ذكره لهذه الأشياء كلها، فلما قام وذهب دعاه عليه الصلاة والسلام، فلما رجع إليه قال له: { هل تسمع حي على الصلاة حي على الفلاح؟}قال: نعم، قال له عليه الصلاة والسلام: { هلم هلا}، أي تعال إلى الصلاة، فلا عذر لك، وقال النبي: {من سمع نداء المؤذن ولم يأت بالصلاة فلا صلاة له}[326].

إياك يا أخي أن تتخلف عن صلاة الجماعة لغير عذر ناجز يمكنك أن تعتذر به بين يدي الله علام الغيوب، وإن بدا لك القعود في بيتك لأمر رأيت فيه خيرا وصلاحا لك في دينك أو دنياك خذ إليك من يصلي معك في بيتك ولو واحدا، وتفوز بالثواب، فإن فضل الجماعة يحصل بإمام ومأموم، وفي الحديث: { من صلى العشاء في جماعة كان في ذمة الله حتى يصبح، ومن صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله حتى يمسي، وينهى عن التعرض لمن هو في ذمة الله بشيء من السوء}[327].

---

[324]- أخرجه السبكي

[324]-في سنن الترمذي

[326]- أخرجه النسائي

[327]- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير.

وأخبر أن الحجاج مع جوره وظلمه وتعديه لحدود الله كان يسأل كل من يأتي به نهارا هل صليت الصبح في الجماعة؟ فإن قال نعم خلى سبيله مخافة أن يطلبه الله بشيء من ذمته، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة يوما فقال: { من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف}[328].

نفل الصلاة فضله مأثور وذنب من لازمه مغفور

وطلب منا رضي الله عنه أن نلازم نوافل الخير، لأن فضلها عظيم، لأن الله يحب العبد بالنوافل، حيث قال في الحديث القدسي: {مازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه}[329] إلخ، النوافل تكفر الذنوب، ولذلك قال رضي الله عنه: «وذنب من لازمه مغفور»، وشرعت لنا صلاة النوافل حتى نجبر النقص في صلواتنا، ونتمم فرائضنا، ويقول حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم: {إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، ويقول الله تعالى لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتممها أم نقصها، فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئا قال الله تعالى: انظروا هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع قال: أكملوا فريضة عبدي من تطوعه}[330].

وقال عليه الصلاة والسلام: {ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى يومًا اثنتي عشر ركعة تطوعا غير الفريضة إلا بنى الله له بيتا في الجنة}[331].

---

[328]- أخرجه أحمد بسند جيد والطبراني

[329]- أخرجه البخاري عن أبي هريرة

[330]- في سنن الترمذي عن أبي هريرة

[331]- في كتاب الدرة الخريدة

وهناك رواتب معروفة ومشهورة، منها الشفع والوتر، وركعتي الفجر، وصلاة الضحى، وأقلها ركعتان، وأكثرها ثمان ركعات، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {من حافظ على شفعة الضحى غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر}[332].

ومنها ركعتان أو أربع قبل الظهر، وأربع بعد الظهر، وكذلك قبل العصر وبعد المغرب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { من صلى بعد المغرب ست ركعات لا يفصل بينهن بكلام عدلن له عبادة اثنتي عشرة سنة}[333].

وكذلك أربع ركعات بعد صلاة العشاء، ومنها صلاة التسبيح، وهي أربع ركعات، فقد روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب: {ألا أمنحك إلا أحبوك بشيء، إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك، أوله وآخره، قديمه وحديثه، عمده وخطأه، سره وعلانيته؟ تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا، ثم ترفع من السجود فتقولها جالسا عشر مرات، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا قبل القراءة، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة، فإن لم تفعل ففي كل شهر، فإن لم تفعل ففي سنة مرة}[334].

---

[332]-خرجه ابن حبان عن أبي هريرة

[333]-أخرجه الترمذي عن أبي هريرة

[334]-في سنن أبي داود عن عبد الله بن عباس

وفي رواية للطبراني يقول بعد التشهد وقبل السلام: اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى، وأعمال أهل اليقين، ومناصحة أهل التوبة، وعزم أهل الصبر، وجد أهل الخشـــية، وطلب أهل الرغبة، وتعبد أهل الورع، وعرفان أهل العلم حتى أخافك، اللهم إني أســألك مخافة تحجزني عن معصــيتك حتى أعمل لطاعتك عملا أســتحق به رضــاك، وحتى أناصــحك بالتوبة، وحتى أخلص لك النصـيحة حبا لك، وأتوكل عليك في الأمور كلها حسـن ظن بك ســبحان خالق النور، ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنك على كل شــيء قدير.

يا أيها العاقل صـم شـهر الصـيام من غير تفريط وثن بـالقيـام

وبعد إحسـان الصـلاة وإكمالها يطلب منا رضـي الله عنه إن كنا عاقلين أن نقوم بصوم شـهر رمضـان، لأنه عظيم القدر والمنزلة عند الله وعند رسـوله، وهو سـيد الشـهور، وفرض الله صـيامه على المسـلمين، وكتبه عليهم، فقال: ﴿يا أيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصـيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[249]، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: خطبنا رسول الله صــلى الله عليه وســلم في آخر جمعة من شــعبان فقال: { أيها الناس، قد أظلكم شـهر عظيم مبارك، فيه ليلة القدر، خير من ألف شـهر، فرض الله صــيامه، وجعل قيامه تطوعا، من أدى فيه فرضــة كان كمن أعتق رقبة، وكمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر يزاد فيه رزق المؤمن، من فطر فيه صــائما كان كمن أعتق رقبة، وهو شــهر الصــبر، - الصــبر ثوابه الجنة – وشــهر المواســاة، قالوأ يا رســول الله، ليس كلنا يجد ما يفطر به

[249] - سورة البقرة: 183

الصـائم، قال: يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صـائما على تمرة، أو شـربة ماء، أو مذقة لبن، وهو شـهر أوله رحمه وأوسـطه مغفرة و آخره عتق من النار}[335].

إذن شـهر رمضـان شـهر عظيم، فيه خيرات كثيرة، وقيل إن الله تعالى ينظر في أول ليلة منه إلى الصائمين، ومن نظر إليه بعين الرحمة لم يعذبه، ويغفر لهم في آخر ليلة منه، وقال جبريل لرسـول الله عليهما السـلام: {من أدرك رمضـان فلم يغفر له أبعده الله، قل آمين، فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: آمين}[336]، والسـبب في ذلك أن تيسـير أسـباب المغفرة في رمضـان أكثر منها في غيره من الشهور.

وقد ورد {أن أبواب السـماء وأبواب الجنة تفتح كلها في رمضـان، وتغلق أبواب النيران، وتقيد مردة الشياطين كي لا يفسدوا على المسلمين صيامهم، وينادي مناد كل ليلة من رمضـان: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشـر أقصـر}[337]، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم :{ من صـام رمضـان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه}[338].

وقوله رضـي الله عنه: «وثن بالقيام»، ثن فعل أمر من ثنى يثني، أي زد القيام، يعني صلاة التراويح، وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسـلم كان لا يزيد على إحدى عشـرة ركعة لا في رمضـان ولا في غيره، وفي الحديث {أن الله افترض صوم رمضان، وسننت لكم قيامه، من صامه وقامه إيمانا واحتسابا كان كفارة لما مضى}[339].

وقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره،

335- في الترغيب والترهيب للمنذر ومشكاة المصابيح

336- أخرجه البخاري في التاريخ الكبير

337- أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة

338- متفق عليه عن أبي هريرة

339- أخرجه ابن عبد البر عن أبي هريرة

وكان يجتهد في العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيرها من رمضان، وذلك طلبا لليلة القدر.

وفي الحديث: { تحروا ليلة القدر ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تنزل تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى}[340].

وزك أموالك دون نقص إن وجد النصاب دون وقص

«وزك» فعل أمر من زكى يزكي، والنصاب هو القدر الذي إن بلغه المال وجبت زكاته، الوقص بفتح الواو وهو ما بين الفرضين مثلا من ست إلى تسع من الإبل، والمعنى أخرجوا زكاة أموالكم بدون نقص شيء منها إذا بلغ نصابا.

لأن الزكاة أحد مباني الإسلامي الخمس، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصلاة في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، ومنها: ﴿وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، إن الله بما تعملون بصير﴾(250).

وعن أنس بن مالك قال: أتى رجل من تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضر فاخبرني كيف أصنع وكيف أنفق، فقال رسول الله ﷺ: {تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار}[341]، ونفهم من كلامه عليه الصلاة والسلام أن من لم يؤد الزكاة فليس بمؤمن.

علينا أن نعلم الأموال التي بين أيدينا هو مال الله، أنعم الله به علينا، وجعلنا مستخلفين فيه، وموكلين عليه لنتصرف فيه بحسب ما يحبه

250 - سورة البقرة: 110

340- كتاب الدرة الخريدة

341-رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

ويرضـــاه، يقول تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[251]، والله أمرنا أن نعطي جزء من ماله الذي آتانا للفقراء والمســاكين، ومع ذلك يعطينا الأجر الكبير، والجزاء العظيم في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿وءاتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾[252]، ولابد أن نعلم أن الزكاة واجب على الأغنياء، وحق للفقراء، وليســت منة من أحد عليهم، بل المنة لله المنعم الذي أفقر وأغنى ليبلوكم أيكم أحســن عملا، الزكاة علامة من علامات الإيمان، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {الصلاة نور، والصدقة برهان}[342].

الزكاة تطهر الأموال، وتطهر المزكي من الذنوب، ومن الأنانية والشح، وقسوة القلوب، وقال الله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صــدقة تطهرهم، وتزكيهم بها، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليم﴾[253].

الزكاة تدفع عنا البلايا والمصــائب، وتفرج عنا الكروب والنوائب، وتحفظ أموالنا، وتشفي مرضانا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أنواع البلاء بالدعاء والتضرع}[343]، وقال أيضا: {ما هلك مال في بحر ولا بر إلا بحبس الزكاة}[344].

فالمال المزكى محصون ومحفوظ في حرز الله، لأنه طيب مبارك، والمال الذي ليس بمزكى ضائع، لأنه خبيث وغير مبارك.

خســران شــخص مانع الزكاة مُعــاين دنيــا بــلا مــمات

يعني أن مانع الزكاة يخســر في الدنيا والآخرة، ويعاقب قبل الموت، وذلك معاين كما وقع لقارون حين منع الزكاة، وقال تعالى:﴿ فخســفنا به وبداره

---

251 - سورة النحل: 53
252 - سورة النور: 33
253 - سورة التوبة: 103

342- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير
343-أخرجه أبو داود عن عبد الله بن مسعود
344- أخرجه الطبراني عن عمر بن الخطاب

الأرض﴾[254]، فإن من منع الزكاة منع الله عنه الخيرات، وسلبه الثروات والبركات، ويقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: {وما منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء}[345].

رسول رب العالمين حذَّرا عن كنز مال فاز من تشمر

إلى امتثال أمر ذي الجلال سبحان ذي الجلال والكمال

يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم يحذرنا من اكتساب كنز مال لا يخرج منه الزكاة، لأن الزكاة حق الله، من ضيع حق الله ضيعه الله في الدنيا، ومن أخرجها كان له ثواب عظيم، وروي: {من أدى زكاة ماله فقد أدى الحق الذي عليه، ومن زاد فهو أفضل}[346].

وعلى ذلك فاز من تشمر، أي اجتهد في إخراج الزكاة امتثالا لأوامر ربه ذي الجلال والجمال والكمال، ويعلمنا رضي الله عنه أن في أسماء الله الحسنى اسم جلالي، واسم جمالي، واسم كمالي.

لمانع الزكاة ذي الخسران نار مع الحميم والثعبان

«لمانع» خبر مقدم، «ذي الخسران» نعت له، «ونار» مبتدأ مؤخر، يعني أن مانع الزكاة يعذب بالنار، والحميم أي الماء الحميم، والثعبان أي الحية، قال تعالى في حقهم: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[255].

---

254 - سورة فصلت: 81

255 - سورة التوبة: 34-35

345- أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر

346- أخرجه السيوطي مرسلا عن الحسن البصري

ويقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: { من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعا أقرع – ثعبانا شديد السم – له زبيبتان – نكتة سوداء فوق عينه – يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه – شدقيه – ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما ءاتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السماوات والأرض، والله بما تعملون خبير﴾}[347].

وفهمنا من هذه الآيات والأحاديث أن منع الزكاة يسبب أضرارا عظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها تعريض المال للتلف والهلاك، ففي الحديث الذي رواه البزار عن عائشة رضي الله عنه: {ما خالطت الزكاة مالا إلا أهلكته}[348].

ونحن نرى ونسمع اليوم ما يصيب الأموال من الكوارث التي تتلفها من حريق ونهب وسلب وخسارة وإفلاس، وما يصيب الثمار من الآفات، وهذه كلها عقوبة من عقوبات منع الزكاة، وما نشاهد من انحباس الأمطار عن كثير من البلاد، وأما العقوبات الآجلة فهي أشد، وحكي أن رجلا كثير المال كان في زمن ابن عباس، لما مات حفروا له قبره فوجدوا ثعبانا عظيما فأخبروا ابن عباس بذلك فقال: احفروا غيره، فحفروا غيره، فوجدوا الثعبان فيه حتى حفروا سبع قبور، فسأل ابن عباس عن حاله فقالوا: كان لا يزكي، فأمر بدفنه معه، إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الصحيحين:

{ ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنضحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس}[349].

---

[347]- أخرجه البخاري عن أبي هريرة

[348]-أخرجه البخاري والترمذي عن عائشة أم المؤمنين

[349]- متفق عليه

لم يك في الكنز سوى الخسران والطرد واللعنة والنقصان

يعني أن ليس في الكنز الذي لم ينفق في سبيل الله إلا الخسران والطرد من حظيرة الله، واللعنة في الدنيا والآخرة والنقصان، والمال المزكى يزيد ولا ينقص، وحكي عن بعضهم أنه دخل عليه بعض أصحابه فوجدوا الذهب والفضة منثورين في بيته، وأولاده ذاهبون وراجعون عليها، فقالوا: يا سيدنا أما هذا إضاعة مال؟ قال: بل هو في حرز، قالوا له: وأين الحرز؟ قال لهم: هي الزكاة، وذلك حرزها.

هذا الذي هول كل عاقل عن منع حق الله دون غافل

«هذا» أي إشارة إلى ما ذكر من العقوبات «الذي هول» أي خوّف كل رجل عاقل عن منع حق الله، بل العاقلون يسارعون إلى إخراج زكاة أموالهم ابتغاء وجه الله ومرضاته، ولا يطلبون بصدقاتهم مدحا ولا سمعة، ولا ينتظرون من الناس جزاء ولا شكورا، ويزكون سرا حتى يبتعدوا عن الرياء والكبر لينالوا مغفرة الله، ويستظلوا بظله يوم لا ظل إلا ظله، يقول الله في فضل إخفاء الصدقة:﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ونكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾[256].

والموصوف بهذه الصفة من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، والغافل هو الذي لا يخاف عن منع الزكاة.

[256] - سورة البقرة: 271

نفل زكاة المال قد قدمت فيه كفاية وما ونيت

يعني أن صدقة التطوع، والإنفاق في وجوه البر والخير ابتغاء مرضاة الله وثوابه قد سبق أن ذكرت ما فيه الكفاية، وقد ورد في فضل ذلك آيات وأحاديث ما يطول ذكره، قال تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تفعلوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[257].

وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه – مهره – حتى يكون مثل الجبل}[350].

فضل تطوع الصيام قد ورد في الذكر والسنة للذي اقتصد

ومعنى البيت فضل تطوع الصيام قد جاء في الذكر أي القرآن والسنة، أي الحديث «للذي اقتصده»، أي قصد معرفته، وأفضل الصيام بعد رمضان صوم الأشهر الحرم، وهي أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وقد ورد أن صوم يوم من الأشهر الحرم يعادل صيام ثلاثين يوما من الأشهر غير الحرم.

وروي أيضا أن من صام ثلاثة أيام متتابعة من شهر الحرم الخميس والجمعة والسبت باعده الله من النار.

[257] - سورة البقرة: 272

[350]- أخرجه البخاري في كتاب الزكاة عن أبي هريرة

ومن السنة صيام ست من شوال على إثر رمضان جبرا للخلل الذي يعرض للصائم فيه، قال صلى الله عليه وسلم: {من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال فكأنما صام الدهر كله}[351].

ومن الفضائل صوم يوم عرفة، وقد ورد أن صومه يكفر سنتين، وكذلك صوم يوم عاشوراء، أي العاشر من المحرم، والتاسع كل واحد منهما يكفر سنة، ومن المتأكد المستحب من الصيام صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وقد وردت فيه الأحاديث الكثيرة بأنها تعد صيام الدهر.

سعي بأقدام أو الرحال لقصد حج بيت ذي الجلال

أوجبه الله على الذي قدر دون تخلف وفي الذكر ذكر

يعني أن السعي إلى بيت الله الحرام راجلا أو راكبا للحج أوجبه الله على كل مسلم قادر في العمر مرة، لأن الحج هو ركن من أركان الإسلام، وقوله: « وفي الذكر ذكر» أي ذكر في القرآن حيث قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾[258]، وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله تعالى ثم لم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا}[352].

وهذا نهاية التهديد على من يترك الحج مع الاستطاعة، فلا ينبغي للمؤمن أن يؤخر ويتكاسل ويسوّف ويتعلل بالأعذار من سنة إلى سنة، وهو مع ذلك مستطيع، وما يدريه لعل الموت ينزل به، وتذهب استطاعته، وقد استقر الحج في ذمته، فيلقى الله تعالى عاصيا آثما.

---

258 - سورة آل عمران: 97

351- رواه مسلم عن أبي أيوب الأنصاري

352-أخرجه الترمذي والبيهقي عن علي بن أبي طالب

الحج فرصة لزيارة ومشاهدة أول مسجد بني لعبادة الله في الأرض، والبيت الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، البيت الذي حج إليه الأنبياء والمرسلون، البيت الذي اسس على التقوى والإيمان، ومشاهدة الصفا والمروة وزمزم والحجر الأسود، والبيت الذي شهد مولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنطلق دعوته العظيمة، البيت الذي جعله الله قبلة للمؤمنين في كل مكان، وهذا كله إن ترك الحج مع القدرة عليه لظلم عظيم للنفس، وحرمان لها من خيرات وبركات وهذه الفرصة من الأجر العظيم الذي أعده الله لمن يؤديها.

واغتنموا نعمة القدرة والصحة، وفرصة الحياة والشباب، وفسحة الوقت والإيمان، وعجلوا بالحج فإن المرء لا يدري ماذا يعرض له، ودوام الحال من المحال، وبين لحظة وأخرى يغير الله من حال إلى حال، يقول تعالى:﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾[259].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { تعجلوا إلى الحج، فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له}[353]، وهناك أشياء لابد أن يقوم به من أراد أن يحج وهي:

إذا عزمتم على الحج توبوا إلى الله توبة نصوحا حتى تدخلوا بيت الله بقلب طاهر، ويد نظيفة، ونفس طيبة، سددوا ديونكم، وردوا الحقوق إلى أصحابها، وأدوا الأمانات إلى أهلها، وتحللوا من المظالم، واطلبوا العفو والسماح من كل من أسأتم إليه بحقه، ويقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: {من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل

---

259 - سورة لقمان: 34

353- رواه أحمد وأبو داود

صـــالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن لديه عمل أخذ من ســـيئات صاحبه فتحمل عليه}[354].

وإذا عزمتم على الحج فتزودوا لحجكم بالمال الطيب الحلال، فالله طيب لا يقبل إلا طيبا، وقال تعالى:﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب﴾[260].

إذا عزمتم على الحج تعلموا منـاســـك الحج حتى تحجوا كمـا أمركم الله تعالى، وســن لكم نبينا محمد صـلى الله عليه وسـلم الذي أوصـانا أن نتتبع سنته وطريقته في الحج فقال: { أيها الناس خذوا عني مناسككم}[355].

وإذا عزمتم على الحج فـأمّنوا نفقـة عيـالكم قبـل ســـفركم، يقول حبيبنـا محمد صلى الله عليه وسلم: {كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت}[356].

وإذا عزمتم على الحج فاجعلوا غايتكم رضـــوان الله، وأخلصـــوا النية لله، وابتغوا وجه الله تعالى لأنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصـــا لوجهه، يقول جل جلاله:﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾.

إن أعمال الحج رموز لقيم عظيمة ومعان سامية.

فالإحرام رمز للطهارة والتجرد من كل متاع الدنيا، والإقبال على الله، كأنه يقول: يا رب تركت جاهي وســـلطاني ومالي وأهلي وأولادي، وتركت مباهج الدنيا، وحياة الرغد والرفاهية، وجئت إليك لتغفر لي.

والطواف تشـــبـه بـالملائكـة الـذين يطوفون بـالبيـت المعمور في الســـمـاء الســابعة، وتقبيل الحجر الأســود إتباع لســنة نبينا محمد صـلى الله عليه

---

[260] ـ سورة البقرة: 197

354ـ رواه البخاري
355ـ رواه البيهقي في السنن الكبرى
356ـ متفق عليه
357ـ رواه أبو داود ومسلم في صحيحه

وسلم، ورموز للشوق إلى الجنة، لأن الحجر الأسود من أحجار الجنة، والسعي يذكرنا بسعي هاجر رضي الله عنها زوجة إبراهيم، أم إسماعيل عليهما السلام، وهي تبحث عن الماء لطفلها بين الصفا والمروة، وتذكر المسلم بفرج الله ورحمته ليعلم أن الفرج والرزق بيد الله تعالى، وتذكر للنساء والأمهات بهذه المرأة العظيمة التي رضيت أن تسكن وحدها مع طفلها في واد مقفر موحش، لا أنيس فيه طاعة لله عز وجل، وطاعة لزوجها إبراهيم عليه السلام، موقنة أن الله لن يضيعها طالما أنها في طاعته، يقول تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾[261].

اللهم اجعلنا من الساعين إلى الخير، والساعين إلى الجنة.

والوقوف بعرفات تذكيرا لنا بيوم البعث والحساب، حيث نجتمع على صعيد واحد لتجزى كل نفس بما تسعى، كما يغفر الله لأهل عرفة بفضله ورحمته، نرجو أن يغفر لنا يوم الدين، يقول حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم: {لم ير يوما أكثر عتيقا من النار يوم عرفة}[358].

اللهم أعتق رقابنا من النار برحمتك يا أرحم الراحمين.

وذبح الأضاحي تذكير لنا بقضية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قصة الطاعة والتضحية في سبيل مرضاة الله تعالى.

واعلموا أن الله تعالى شرع لنا الحج حتى نتطهر من الذنوب والآثام، وننال مغفرة الرحمن، يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ابسط يدك لأبايعك، قال: فبسط فقبضت يدي فقال: {ما لك يا عمرو؟ قلت: أشترط، قال:

---

261 - سورة البقرة: 158

358- أخرجه المنذري عن جابر بن عبد الله

تشـــترط ماذا؟ قلت: أن يغفر الله لي، قال: أما علمت أن الإســـلام يجب ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله}[359].

وفي الحديث: {من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه}[360]، وفيه أيضـــا: {الحجاج والعُمَّار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن اســـتغفروه غفر لهم، وإن ســـألوه أعطاهم}[361]، وفيه أيضـــا: {العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة}[362].

أمـا جـهـاد الحـرب فـأعـلـم أنـه فرض كفـايـة وعـظـم شـــأنـه

وذكر رضـــي الله عنه الجهاد في ســـبيل الله، ونبهه «باعلم»، لاهتمامه بهذا الأمر، وعلمك أيضا بأن الجهاد فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن البعض، وقوله: «عظم شـــأنه»، أي اجعل شـــأنه عظيما عندك، لأنه من أقســـام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو أعلاها وأشـــرفها وأفضـــلها، لأنـه أمر برأس المعروف الـذي هو التوحيـد والإســـلام، ونهي عن أفحش المنكرات والآثام الذي هو الكفر والشـــرك بالله، وقوله « جهاد الحرب»، من إضـافة الكل إلى الجزء، لأن الحرب بالأسـلحة جزء من الجهاد، ولكن هناك أنواع أخرى للجهاد، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم: {من رأى منكم منكر فليغيره بيده، فإن لم يســـتطع فبلســـانه، فإن لم يســـتطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان}[363]، والتغيير باليد هو الجهاد في سبيل الله.

وقد شـــرع الجهاد لأعلاء كلمة الله حتى يُعبد الله وحده لا شـــريك له، قال تعالى:﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾[262].

---

[262] - سورة الأنفال: 39

[359]- في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص
[360]- متفق عليه عن أبي هريرة
[361]- أخرجه الطبراني عن أبي هريرة
[362]- رواه الشيخان عن أبي هريرة
[363]- أخرجه ابن حبان عن أبي هريرة بسند صحيح

وتجدر الإشـــارة أن الجهاد يكون دفاعا عن النفس ضـــد من يهدد كيانها ووجودها، وكذلك إن حيل بيننا وبين حريتنا في نشـــر الحق، فإن الإســـلام يبيح لنا الحرب من أجل الحفاظ على تلك الحرية وتأمينها، والمجاهدون يجاهدون الكفار لإعلاء كلمة الله، ولكن ما يحدث في هذا العصـــر ليس جهادا، بل إرهابا، إذ الجهاد له قواعد وشروط، وكان رسول الله صلى الله عليه وســـلم وكل خليفة يوصـــي القائد الذي يرســـله للقتال بأن لا يقتل شـــيخا ولا طفلا ولا امرأة، وألا يتعرضـــوا للرهبان الذين نذروا أنفســـهم للعبادة، وألا يهدموا معبدا، ولا يقطعوا شـــجرا، وألا يبذروا الثروات، وألا يتعرضـوا لغير المحاربين، وما نشـاهده للذين يسـمون أنفسـهم بالمجاهدين ويفجرون القنابل في المساجد، ويقتلون المسلمين هل هذا جهاد؟

انظر كيف تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة بن زيد، وكان أسامة بن زيد على رأس سرية، فأدرك رجلا فقال ذلك الرجل: صبأت، يريد أن يقول أن قد أســـلم، ولكن أســـامة عد هذا نتيجة الخوف، وليس عن إيمان حقيقي فطعنه وقتله، ولكن عندما سـمع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بالخبر أحضـر أسـامة واسـتنطقه فأخبره أسـامة بالخبر كله فغضـب رسـول الله صلى الله عليه وسلم: {قال: لا إله إلا الله وقتلته}، فقال أسـامة: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال: {أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟}[364] قال أســـامة: فمازال يكررها علي حتى تمنيت أني أســلمت يومئذ، أي تمنى أنه لو لم يســلم إلى ذلك اليوم لكيلا يســمع مثل هذا العتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[364]- في صحيح مسلم عن أسامة بن زيد

ذر التكاسل عن الجهاد جاهد بجد كل ذي عناد

ذر فعل أمر من وذر يذر، أي اترك التكاسل، أي التثاقل في الجهاد، وجاهد الكافرين بجد واجتهاد كل ذي عناد، أي الكافر العنيد، أي المريد، والتكاسل في الجهاد من صفة المنافقين، وقال تعالى: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾[263]، أعاذنا الله من النفاق.

اعلم أخي أن الرحيم بشرا أهل جهاد الحرب ثم اعذرا

جميع ما يقول لو علمتا فضائل الجهاد ما ضعفتا

يعني أن الله بشر المجاهدين في سبيل الله وقبل لهم الأعذار، وقال لهم: ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[264].

ولو علمت فضائل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين ما ضعفت، قال تعالى: ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا، إن الله عنده أجر عظيم﴾[265].

وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة}[365]، الفواق ما بين، وقال أيضا:

---

263 - سورة التوبة: 44-46

264 - سورة التوبة: 111

265 - سورة التوبة: 21-22

365- أخرجه الترمذي بسند حسن

{ تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمانا بي، وتصديقا برسلي فأنا ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر وغنيمة، والذي نفس محمد بيده ما منكم أحد يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلم، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزوا في سبيل الله تعالى أبدا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزوا فأقتل}[366].

وقال أيضا: {المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله}[367]، وقال أيضا {أن في الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض}[368].

إذ أنبأ الله بانه اشترا نفوسنا ومالنا وأخبرا

أن الجنان رأس ماله لمن يقاتل الكفار حبذا الثمن

المشتري الله وسيد الوجود واسطة بين العباد والودود

أشار هنا رضي الله عنه إلى قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله﴾[266]، وقال

[266] - سورة التوبة: 111

[366]- رواه الشيخان
[367]- متفق عليه
[368]-متفق عليه

أيضـــا: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسـوله، وتجاهدون في سـبيل الله بأموالكم وأنفسـكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم، ويـدخلكم جنـات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم﴾[267].

جهـز بـأموالـك جيـش المؤمنيـن إن كـنـت ذا عـذر تـكـن مـن مـــحســـــنـــــيـــن

«جهز» فعل أمر من جهز يجهز يعني عدّ وناصـر وسـاعد بأموالك حيش المؤمنين إن كنت صـاحب عذر تكن من المحسـنين، وقال النبي صـلى الله عليه وسلم: {من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهل بخير فقد غزا}[369].

وإن أفضـل ما ينفقه المسـلم من ماله ما بذله في سـبيل الله، ونصـرة دينه، وأن الله وعـد المنفقين في سـبيلـه بـالخير الكثير، والثواب العظيم، يقول سبحانه: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سـنابل، في كل سـنبلة مائة حبة، والله يضـاعف لمن يشـاء، والله واسـع عليم﴾[268]، وروي عن النبي صـلى الله عليـه وسـلم: { أن من أنفق على الغـازي ولم يغز فله بكل درهم سـبعمائة درهم، ومن أنفق على نفس في الغزو فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم}[370].

وعنه صـلى الله عليه وسـلم: { من أعان مجاهدا في سـبيل الله أو غارما في غرمه أو مكاتبا في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله}[371].

---

267 - سورة الصف: 10-12

268 - سورة البقرة: 261

369- متفق عليه عن زيد بن خالد

370-أخرجه الدمياطي عن علي بن أبي طالب

371- أخرجه الذهبي عن سهل بن حنيف

والجهاد في سبيل الله يكون بالمال، ويكون بالنفس، وقد جاء الحث على الجهاد بالمال مقدما على الجهاد بالنفس في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾[269]، ومنه قوله تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

فالجهاد بالمال معناه أن تدفع مالا يستعين به المجاهدون في سبيل الله في نفقتهم، ونفقة عيالهم، وفي شراء الأسلحة وغيرها من معدات الجهاد.

للشهدا يغفر أول الملا قة إلهُنا تعالى ذو العلا

هو الذي يمنع كل الأرض من أكل لحم الشهدا والقرض

إي والذي جعلهم أحياء مع التمتع كما أشاء

وهو الذي أمنهم من الفزع تاج الكرامة لهم بلا جزع

إن قلت هل لهم شفاعة أقل نعم بلا شك وريب يا رجل

لواحد اثنان مع سبعينا حوراء قبل بعث عالمين

هنّاهم الله بنيل الأمل بلا حساب وبدون الوجل

[269] - سورة التوبة: 41

ويذكر رضي الله عنه في هذه الأبيات فضل الشهيد نحو سبع خصال، مشيرا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: {إن للشهيد عند الله سبع خصال: أن يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلية الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويتزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه}[372].

«القرض» دويبة صغيرة، وقوله: «هناهم» أي بشرهم، يقول لهم الله سبحانه وتعالى: هنيئا لكم، وقد ورد أن الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة، وقال الله تعالى:﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[270].

خاف المنافق من الممات قبل تمام أجل الفوات

جعل النجاة في التخلف عن المعارك بلا توقف

يظن أن أجل الإنسان يزداد أو يكون بالنقصان

رضي بالسخط وبالعتاب هارب يوم الزحف والعذاب

[270] - سورة آل عمران: 170

[372]- أخرجه الدمياطي عن عبادة بن الصامت

يعني أن المنافق يخاف أن يذهب إلى الجهاد لئلا يموت في المعركة، يظن أن التخلف يمنعه من الموت، ولا يدري أن أجل الإنسان لا يزيد بالتخلف، ولا ينقص بالمشاركة في الجهاد، يعني رضي هذا المنافق بسخط الله وعتابه وعذابه، وهارب يوم الزحف، وقد أوعد الله هذا الهارب وعيدا شديدا، حيث قال: ﴿يا أيها الذين ءامنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[271].

وقد عدّ عليه الصلاة والسلام الهرب يوم الزحف من الموبقات ومن الكبائر، وقال: {ثلاث لا ينفع معهن عمل: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار}[373].

بُشر من أخلص في الجهاد بنيل مال أو ثواب الهادي

بشر مبني للمجهول يعني يفرح من أخلص الجهاد بنيل الغنيمة والأموال، وكذلك الثواب عند الله «الهادي» اسم من أسماء الله تعالى، والإخلاص في الجهاد هو أن يريد به وجه الله تعالى، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته دون غرض آخر، ولا رياء أو طلب المنزلة عند الناس، أو نيل غنيمة أو شيء من حظوظ الدنيا، وقال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه حتى نزل قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل

[271] - سورة التوبة: 15-16

[373]- أخرجه الطبراني في المعجم الكبرى عن ثوبان

يقاتل ليرى مكانه، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله}[374].

فينبغي للمجاهد أن يحترز كل الاحتراز من الرياء، وإرادة غير وجه الله بجهاده فيحبط عمله، ويبطل أجره.

ما صدق الجالس عن جهاد لله دون عذر ذي سداد

يعني أن الجالس عن الجهاد في سبيل الله خاطئ ومخالف لأمر الله، لأنه أمر بجهاد الكافرين في قوله:﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾، ولا ينبغي التثاقل والتكاسل والتخلف بدون عذر، وقال:﴿ يا أيها الذين ءامنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما، ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا، والله على كل شيء قدير﴾[(272)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {إذا ضن الناس-بخلوا -بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، -وهي نوع من الربا – واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم}[375].

اعلم بأن الأمر والنهي على ذي قدرة أوجبه رب العلا

يعني أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوجبه الله العلي على القادر على ذلك، وهو من أعظم شعائر الدين، وذكر المؤلف الحاج عمر الفوتي رضي الله عنه في كتابه تنبيه الغافلين، وقال: «اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي

---

[272] - سورة التوبة: 38-39

[374]- أخرجه أبو عيسى بسند حسن صحيح

[375]- أخرجه القطان عن عبد الله بن عمر

عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي لأجله بعث الله النبيين صلوات الله عليهم، ولو طوي بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الدنيا، وعمت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وخربت البلاد، وهلكت العباد، واستدل بآيات وأحاديث تدل على الوجوب، من أراد التوسع في ذلك فلينظره في مقدمة الكتاب المذكور.

المعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والأعمال الصالحة، أو كل فعل يعرف العقل والشرع حسنه، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه الله، وينهى عنه، أو كل فعل حرمه الشرع، وكرهه واستقبحته العقول الصحيحة.

ويجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب استطاعته ومقدرته، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى في كتابه:﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[273].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة كل مسلم ومسلمة، ومسؤولية كل مؤمن ومؤمنة، وقال تعالى:﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[274]، فهذا دليل الوجوب، فإن قوله:﴿ ولتكن منكم ﴾أمر وظاهره الإيجاب، ففيها بيان أنه فرض كفاية، إذ لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف

---

273 - سورة آل عمران: 110

274 - سورة آل عمران: 104

الإيمان}[376]، وقال أيضا: {أيها الناس مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجاب لكم، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم}[377].

إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يدفع رزقا، ولا يقرب أجلا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته}[378]، فيجب على القائد أن يأمر من تحت يده بطاعة الله، ويُلزمهم بأداء الواجبات، وترك المنكرات، فلابد من التعاون بين الزوج والزوجة إذا رأيا منكرا في بيتهما أن يتعاونا على تغييره بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا شاهدوا انحرافا في الابن والبنت مثلا يجب على الآباء والأمهات أن يجتهدوا على علاج انحراف أبنائهم وبناتهم بالتي هي أحسن، وواجب الزوجة أعظم من واجب الرجل، لأن المرأة تعيش في البيت، ترافق الأبناء أكثر من الرجل، وبذلك تستطيع أن تطلع على كل أسرار أبنائها وبناتها، وتراقب أخلاقهم في السر والعلانية، وإذا رأت انحرافا في أحدهم فلا تستره، بل فلتخبره الأب ليعالجه في بدايته قبل أن يستفحل أمره فهو كمرض عضال ووباء خطير، والمرض إذا لم يعالج في بداية ظهوره فإنه يعم الجسد كله ويصعب علاجه، فإذا عالجنا المنكر وحاربناه في البيت أولا، وقضينا عليه، وضربنا عليه الحصار فإنه لن يخرج إلى المجتمع، ولن نشاهده في الشوارع، فالمنكر الذي نشاهده الآن والذي يرتكبه أبناء وبنات المسلمين داخل العالم الإسلامي سببه أن الآباء والأمهات لم يقوموا بواجبهم داخل البيت، وعلى السلطات أن تغلظ العقوبات على كل من ارتكب المنكر جهارا، لأن السلطات هي التي تتولى تغيير المنكر باليد، وإزالته وتأديب العاصي بما يناسب، فهم مسؤولون

[376]- أخرجه مسلم عن سعيد الخدري

[377]- أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر

[378]- متفق عليه

عمن تحت ولايتهم، وعليهم أن يحاربوا الفساد والمفسدين، والإجرام والمجرمين.

وأما التغيير باللسان فعلى عاتق علماء الأمة الإسلامية، لأنهم ورثة الأنبياء والمرسلين، هم الذين حملوا الأمانة العظمى، فلا يجوز لعالم مسلم أن يسكت أبدا عن منكر رآه، أو سمع به في أي مكان من أرض الله، وقيل: "الساكت عن الحق شيطان أخرس"، ولكن فإن أغلبية العلماء تقاعسوا عن تأدية الأمانة، وتبليغ الرسالة، رضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها حتى وصل الحال ببعضهم أن يستكين للظلم والظالمين، ويرضى بالفجور والمنكر، ويداهن الحكام في فسقهم وضلالهم، ويسكت عن طغيانهم، وفي الحديث: { أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان يلقى الرجل فيقول له: اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون﴾[275] }[379]وضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا محسوسا في ضرر السكوت عن الحق، حيث قال: {مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فكان بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نُؤْذ من فوقنا، فإن تركوهم هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا}[380].

[275] - سورة المائدة: 78-79

[379]- أخرجه أبو داود والترمذي بسند حسن

[380]- أخرجه البخاري والترمذي عن نعمان بن بشير

وفي هذا ينطبق اليوم تماما على أمة الإسلام، فمن المسلمين اليوم من يحمل الفأس، ويهدم صرح الإسلام، ويخرب المجتمع، ويقضي على الخُلق الكريم وطائفة من المسلمين لم تشاركه في الهدم لكنها تتفرج ولم تحرك ساكنا، ولم تقف على وجه المخربين، بل رضيت بهذا الهدم، وإذا سقط هذا البناء لا قدر الله فإنه سيسقط على الجميع، ويهلك كل من كان تحته.

وفي الحديث: {عذب أهل قرية فيها أربعون ألفا، عملهم عمل الأنبياء، قالوا: يا رسول الله، كيف؟ قال: لم يكونوا يغضبون لله، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر}[381].

ومن أكبر العبادات أمرك السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وإذا قُتلت عن ذلك فأنت شهيد، وفي حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الشهداء على الله أكرم؟ قال: {رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر فقتله، فإن لم يقتله فإن القلم يجري عليه عاش ما عاش}[382]، وقال أيضا: {أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر فقتله عن ذلك، فذلك الشهيد، منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر}[383].

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على درجات: أولا باليد، ثم اللسان، ثم القلب، فإذا لم يكن للإنسان سلطة يزيل بها المنكر باليد، ولا يقدر على إنكار المنكر بلسانه وجب عليه أن ينكره بقلبه، فإنكار القلب لابد منه، فمن لم ينكر قلبُه المنكر دل على ذهاب الإيمان منه، فالإنكار بالقلب لا يسقط على أحد وذلك أضعف الإيمان، ورد أن الله عز وجل أمر جبريل عليه

---

[381]- أخرجه العرقي عن جابر بن عبد الله

[382]-في كتاب تنبيه الغافلين

[383]-أخرجه العراقي في حديث مرسل عن الحسن البصري

السلام أن يهلك قرية ويدمرها بسبب فساد أهلها، فذهب سيدنا جبريل ليجعل عاليها سافلها، فوجد فيها رجلا صالحا عابدا زاهدا، فقال: يا رب، إن في القرية رجلا صالحا لم يعصك طرفة عين، وأنت أعلم به يا رب، فقال الله عز وجل: أقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر فيّ – أي لم يتغير فيّ – ساعة قط.

تبا لمن مكن في البلاد ولم يغير منكر العباد

«تبا» الويل والهلاك «لمن مكن»، أي لمن له سلطة في البلاد – الرئيس والحاكم – يمكن له إزالة المعاصي والفساد، فإذا لم يغير الفساد فله الويل والهلاك، وإذا سكت عن ذلك فقد أثم، وعليه لعنة الله، وقال تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله﴾[276].

ويحرم على الوالي أن يظلم رعيته، كذلك يحرم عليه أن يسمح بعضهم من ظلم بعض، ويحرم عليه أيضا الإضاعة لأمورهم، وترك النظر فيها، وأن لا يكون ممن قال الله تعالى في حقه:﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[277].

والوالي مسؤول عن جميع ما يجري في إمارته، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: { السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان الأجر، وكان على الرعية الشكر، وإن جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا ظهر الزنى ظهر الفقر

276 - سورة القصص: 22-23
277 - سورة البقرة: 205

والمسكنة}[384]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضياعا لخشيت أن أسأل عنه.

عليك بالسنة والكتاب جانب ذوي الزيغ عن الصواب

عليك أن تمسك بالسنة النبوية، وبكتاب الله تعالى، لأنهما يهديان إلى كل خير، وقال تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾[278]، وقال أيضا: ﴿فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[279]، فقد وعد الله من تمسك بكتابه، وعمل به أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتوعد من أعرض عن كتابه فقال: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[280]، أي من خالف أمري وما أنزلته على رسولي فأعرض عنه وتناساه، وأخذ من غير هداه فإن له معيشة ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، فإن قلبه في قلق وحيرة وشك.

وقد أمر الله بطاعته وطاعة رسوله في كثير من الآيات، وطاعة الله تكون باتباع كتابه، وطاعة رسوله تكون باتباع سنته، قال تعالى:﴿ تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾.

القرآن هو دستور المسلمين، يدعو إلى مكارم الأخلاق، فهو يقرر التوحيد، وينهى ويحذر من الشرك، القرآن شفاء لما في الصدور، إنه شفاء لأمراض القلوب، والنور الذي يضيء لك الطريق، ويهديك إلى الحق، وقال تعالى:

---

278 - سورة الأعراف: 3

279 - سورة طه: 123

280 - سورة طه: 124

384-أخرجه البيهقي عن عبد الله بن عمر

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[281]، وقال عليه الصلاة والسلام: {إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن أعرض عنه زج قفاه إلى النار}[385].

وأوعد من خالف أمر الرسول بالعقوبة العاجلة والآجلة، فقال تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: { تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما، كتاب الله وسنتي}[386]، وقال أيضا لأمته قبل أن يلقى ربه: { تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك}[387]، وقال أيضا: {من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة}[388]، وقال أيضا: {افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة}، ولما سئل عن الفرقة الناجية من هي قال: {التي تكون على مثل ما أنا عليه وأصحابي}[389]، لملازمتهم للكتاب والسنة، إذن الفرقة الناجية هي التي كانت مقتدية بهديه صلى الله عليه وسلم، متجنبة للبدعة وقال الناظم في الرماح

ان الهدى في الذكر والسنة فقط لا يهتدي المائل عن هذين قط

ويحذركم رضي الله عنه أن تجالسوا أهل الزيغ والفساد، إن من جالس قوما فهو منهم، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: { المرء على دين

---

[281] - سورة الإسراء: 9

[385]-أخرجه مسلم عن زيد بن ثابت
[386]-أخرجه المعى الكندي عن ابن مسعود
[387]-أخرجه أبو داود عن العرباض بن سارية
[388]- أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر
[389]- أخرجه أبو داود عن أبي هريرة

خليله، فلينظر أحدكم من يخالل}، وقال تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾.

وهذه الآية تحذير عن قرناء السوء، وترغيب في مصاحبة أهل الخير والصلاح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وهل يفسد الناس إلا الناس، فالفساد بالصحبة متوقع، والصلاح بالصحبة أيضا متوقع. ومن هنا تضافرت نصوص الكتاب والسنة على الحث على اختيار الجليس الصالح، والابتعاد عن الجليس السيء، وقال تعالى:﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[282]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة}[389].

ما أفسد الدين سوى الملوك وعلماء السوء بالأفوك

يعني أن فساد الدين وصلاحه منوط بالملك والعالم، لأن الملك هو منفذ العقوبات على المخالفين لأنه نائب عن الله في أرضه، وفي الحديث: {السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر، وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، وكان على الرعية الصبر}[391].

---

[282] - سورة الكهف: 28

[390]- متفق عليه عن أبي موسى الأشعري

[391]- أخرجه السيوطي عن عبد الله بن عمر

إذن السلطان هو الذي يطبق الشرع، ويحارب الفساد والمفسدين، فلا ينبغي أن يترك تنفيذ الأحكام، والعلماء لهم دور كبير في صلاح الدين وفساده، «الأفوك» جمع إفك، أي الكذب، إن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا تسألوني عن الشر، وسلوني عن الخير، يقولها ثلاثا، ثم قال: إن شر الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء}[392].

لأن العلماء أدلة الأمة، وعمد الدين، وسراج ظلمات الجهالات، وحملة عظيم الأمانة، وصلاحهم صلاح الأمة، وفسادهم فسادها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {العلماء مصابيح الأرض، وخلفاء الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء}[393].

والمصباح إذا انطفأ أصبح الناس في ظلمة، وقال صلى الله عليه وسلم: {اتبعوا العلماء فإنهم سراج الدنيا، ومصابيح الآخرة}[394].

وقال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى، إن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم، فلا يغرك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة، فإنه جاهل، وليس بعالم، وفي الحديث: { اتقوا زلة العالم، وانتظروا فتنته، فلا ينبغي أن يسكت العالم عن الحق رغبة في الدنيا، فإن سكت عنه فقد عظم إثمه، وتعرض بسكوته لسخط ربه ومقته}[395].

وقيل: زلة العالِم زلة العالَم، والعالم السوء هو الذي يُأوّل الأحكام الشرعية

---

[392]- أخرجه ابن حجر العسقلاني في مشكاة المصابيح

[393]- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير عن علي بن أبي طالب

[394]- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير عن أنس بن مالك

[395]- أخرجه ابن عدى في الكامل في الضعفاء عن عمرو بن عوف

على هوى السلطان، فإذا فعل ذلك فقد خان الله ورسوله، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلاطين، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسول، فاحذروهم واعتزلوهم}[396]، لأنهم إذا خالطوهم يصدقون كذبهم، أو يقولون فيهم ما ليس فيهم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: {شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخير الأمراء الذين يأتون العلماء}[397] و قال أيضا { صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس :الأمراء والفقهاء}[398]

وسبب هذا التحذير لأن غالب مجالسهم لهو وشغل عن الله تعالى، وأكثر أموالهم حرام، وكثرة الاجتماع بهم توقع في تعاطي أموالهم، وهو حسرة وندامة، وقد كان سيدي علي بن وفا يقول: علماء السوء أضر على الناس من إبليس، لأن إبليس إذا وسوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو مضل مبين، فإذا أطاع وساوسه عرف أنه قد عصى، فأخذ بالتوبة من ذنبه، والاستغفار لربه، وعلماء السوء يُلبسون الحق بالباطل، ويردون الحق بأهوائهم وزيغهم وجدالهم، فمن أطاعهم ضل سعيه، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، فاستعذ بالله منهم وجنبهم، وكن مع العلماء الصادقين.

وقال عليه الصلاة والسلام: {لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وشبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه}[399]، البيهقي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

396- أخرجه السخاوي عن أنس بن مالك

397- أخرجه السبكي في طبقات الشافعية

398- أخرجه السخاوي عن ابن عباس

399- أخرجه البيهقي عن أبي هريرة

{من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا}[400]، اللهم اجعلنا من الهادين المهتدين، ونجنا من الضلال والإضلال، آمين.

وعلى السلطان أن يعدل على رعيته ويعاملهم بالرفق، ويحسن النظر في أمورهم، والتعهد والتفقد لهم في جميع أحوالهم، فإن الله سائله عما استرعاه، فبذلك ينجو من الوعيد، ويفوز بالثواب الجزيل، وفي الأثر: {ليوم من إمام عادل خير من عبادة ستين سنة}[401] وأما من ولي فجار وظلم فويل له من عذاب الله وعقابه، فليعلم أن تمتعه في الدنيا قليل، وقال تعالى:﴿ أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾(283).

وعلى الوالي أن يرفق ويرحم برعيته فيرحمه الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: {اللهم من ولي من أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليهن ومن رفق بهم فارفق به}[402].

لم يربحوا في بيعهم نفوسهم وما غلت في بيعهم أثمانهم

إن علماء السوء والملوك استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة، وخسروا في تجارتهم لأنهم يؤثرون المتاع العاجل الفاني وهو الدنيا على المتاع الآجل الباقي وهو الآخرة، وقال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحيوة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾(284).

283 - سورة التوبة: 38
284 - سورة الأعلى: 16

400- في الإحياء للغزالي
401- في الإحياء للغزالي عن عبد الله بن عباس
402- أخرجه مسلم عن عائشة أم المؤمنين

ولو آثروا الآخرة لأعطاهم الله الحياة الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[285].

ولكن علماء السوء والملوك استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، أو اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم، والتجارة الرابحة هي ما قاله الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم﴾، وقال أحد الحكماء: ويل للجاهل مرة، وويل للعالم سبع مرات، وقد ظهر في العلماء كثير من النقائص الدينية، والاستهتار بالشعائر الإسلامية، وعدم الغيرة على الحرمات الدينية، وتكالبهم على حطام الدنيا، وتهافتهم على ترابها، وضياع كرامتهم في سبيلها، ولا يبالون من أي طريقة اكتسبوها، ولما وصلوا إلى هذه الدرجة انصرف الناس عنهم، ولم يثقوا بأقوالهم، وأصبحوا يقولون لهم فيما بينهم: عظ نفسك قبل أن تعظنا، وربنا جل جلاله يخاطبهم بقوله العزيز: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[286].

اللهم وفقنا للعمل بما نقول، وما نسمع، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل، آمين.

ورتعوا في جيفة يبين أنتانها لعاقل يدين

---

285 - سورة الشورى: 20

286 - سورة الصف: 2-3

«رتعوا» أي ذهبوا كالبهائم، يشبعون في الحرام، لأن الحرام جيفة، الجيفة جثة الميت المنتنة، أي ذو رائحة خبيثة، وكل عاقل متدين يتجنب أكل الجيفة، والآيات القرآنية الواردة في التحذير من الاغترار بالدنيا كثيرة، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصير من قصر همه عليها، وأعرض عن الآخرة، وقال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا، ورضوا بالحيوة الدنيا، واطمأنوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾[287]، وقال أيضا: ﴿من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون﴾[288]، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: { ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحد أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع}[403].

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز فقال: أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن، وليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من عزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها، ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجرا، وفيها واعظا، وقد عرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عنه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغضه خالقه، أو

---

[287] - سورة يونس: 7-8

[288] - سورة هود: 15-16

[403]- متفق عليه

يرفع ما وضعه مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارا، وبسطها لأعدائه اغترارا، فالعاقل المتدين يتزود من الدنيا بما ينفعه في الآخرة.

وفي الخبر: والله ما فتح الله على قوم الدنيا إلا فتح عليهم بها باب فتنة، فمن صبر وشكر نجا، ومن فخر وبطر هلك فوالله أنها لأسحر من هاروت وماروت، فمن صحبها بالعلم والتقوى ملكها فأهلكها، ومن ملكها بالجهل والهوى ملكته وأهلكته.

وفي الخبر: طلبت ثلاثة فوجدتها في ثلاثة: طلبت صفاء القلب فوجدته في صيام الصيف، وطلبت رضوان الله فوجدته في الورع، وطلبت خير الدنيا والآخرة فوجدته في قيام الليل.

ونختم بالصلاة والسلام على الذي بشر بالختام

ختم رضي الله عنه كلامه بالصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بشر بخاتم النبيين، ومعنى الصلاة والسلام أي أسأل الله أن يرحم ويؤمّن الذي بشر بخاتم النبيين، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وهما واجبان وجوب الفرائض مرة في العمر مع القدرة على ذلك، وقيل إن ذلك واجب وجوب السنن المؤكدة التي لا يسعُ تركها، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه، ولا يجوز الصلاة على الأنبياء لأنها من خواصّه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يعطها نبي قبله، وإنما غايتهم وقصاراهم السلام كما قال تعالى: ﴿سلام على آل ياسين﴾[289]، ﴿سلام على نوح في العالمين﴾[290]، ﴿سلام على موسى وهارون﴾[291]، إذن فالصلاة خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم كما خُصّص عز وجل بالله تعالى.

---

289 - سورة الصافات: 130
290 - سورة الصافات: 79
291 - سورة الصافات: 182

والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من مكفرات الذنوب، وأعظمها وأبلغها وطرا في محو الذنوب والسيئات، فإنه لا وسيلة أعظم منها، فإن صاحبها لا يكتب له ذنب، فالصلاة على حسب الاستطاعة، فإنها الذخيرة العظمى، والحصن المنيع لمن ثابر عليها، فإنها كفيلة بمحو الذنوب والآثام.

واستعمالها لها شروط منها الطهارة الكاملة كالصلاة، وإلا فالطهارة من الخبث دون الحدث، والطهارة البدنية والمكانية والثوب، وأن يقصد بها صاحبها وجه الله، والتعظيم له ولرسوله دون غير، فإنها إذا صحت على منهجها وثبت أن المرة الواحدة منها تعدل أربعمائة غزوة في سبيل الله، وكل عزوة منها تعدل أربعمائة حجة مقبولة.

ويروى بأسانيد مستحسنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا، ومن صلى عليّ عشرا صلى الله عليه مائة، ومن صلى علي مائة صلى الله عليه ألفا، ومن صلى علي ألفا حرم الله جسده من النار}[404].

وقال بعض العلماء المحققين رحمهم الله: لو صلى الله على العبد في طول عمره مرة واحدة لكفاه ذلك شرفا وكرامة، فكيف بعشر صلوات على كل صلاة يصليها المسلم على نبيه.

هذا آخر ما تيسر لنا جمعه، وشرح هذه الأبيات بحسب فهمنا، ونرجو من الله تعالى القدير أن يسبغ عليه حلل القبول، وأن ينفع به كل من قرأه أو سمعه وكتبه، أو من سعى في تحصيله، ونسأل الله أن يجعلها خالصا

[404]- أخرجه السخاوي في كتاب القول البديع عن أصحاب الرسول ﷺ

لوجهه الكريم، ويجعله من التآليف التي لا ينتهي أجرها إلى يوم الدين، ورجائنا من كل قارئه أن يقبله بقبول حسن، ونرجو منهم المعذرة على ما يلمسونه من أخطاء، فالخطأ صفة لازمة لكل إنسان، وقيل كل بني آدم خطاء.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا...

واعلم أن عدد أبيات هذه القصيدة مائتان وأربعة أبيات.

وقد انتهيت من كتابته في الولايات المتحدة الأمريكية بمدينة كُلُومْبُسْ ولاية أهايو يوم الثلاثاء 13 ذي القعدة 1429 هجرية، الموافق: 11 نوفمبر 2008 ميلادية، تم بعون الله تعالى وحسن توفيقه، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

اللهم اهدنا ووفقنا لما تحبه وترضاه، آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.